اللغات السامية

المحكيّة

في سوريا ولبنان

فيليب حتّي ، دكتور في الفلسفه

بيروت

المطبعة الادبية — سنة ١٩٢٢

اللغات السامية

المحكيّة في سوريّا ولبنان

بحث تاريخي فيلولوجي في تحدّر اللغات السامية ، وتعاقب الامورية والآرامية والعربية منها في سوريا ، وما تخلل ذلك من اللغات غير السامية كاليونانية واللاتينية ، ووصف التنازع العنيف بين السريانية والعربية بعد الفتح الاسلامي ، وبيان ما بقي من الآثار السريانية في لهجة اهل لبنان

يقول السوريّون عن انفسهم إنهم "أولاد عرَب" ، وبهذا الاسم عُرِفوا في بعض اماكن هجرتهم . وربما كان هذا اللقب لازمهم في الولايات المتحدة للآن لولا ان قام في اواخر القرن الفائت مستشرق في كولمبيا ونبّه افكار الجمهور الى ان اولئك المهاجرين السود الشعور والعيون ، السمر البشرة ، النازلين في الاطراف الجنوبيّة من مدينة نيو يورك ليسوا عرَباً على الاطلاق بل سوريون

وانك اذا دقّقتَ البحث مع مَن يقول عن نفسهِ إنّهُ "ابن عرَب" فربما سلَّم معك أن لعلّهُ كان من اصل كنعاني فينيقي ، او آرامي سرياني ، او فارسي ، او يوناني ، او إفرنجي صليبي ، ولكنهُ يصرُّ على انهُ ابن عرب باعتبار لغته . وسنرى في هذا البحث كيف ان اللغة العربية دخيلة في سوريا ، وجلّ سكان البلاد لم يتكلموها الّا بعد الفتح الاسلامي — وهو حادث حديث باعتبار تاريخ البلاد المتوغّل في القِدَم

اللغة الاولى اللاّساميّة

ما هي اول لغة نطق بها ابناء هذه البلاد ؟ هذا سؤال لا سبيل لنا لمعرفة الجواب عليه بالتحقيق ، لا سيّما وان السوري في اول عهدهِ ومطلع فجر تاريخهِ — شأن غيرهِ من بني البشر — كان لهُ ولا شكّ لغة محكيّة فقط لا مكتوبة ، لم تترك اثراً نتعرفها به ولا واسطة تهدينا الى معرفة كنهها . امّا اذا حوّرنا السؤال الى صورة اخرى بحيث يصير : ما هي في عُرف التاريخ اقدم الشعوب التي توطّنت الأقاليم السورية ؟ فربما يصبح الجواب في حيّز الإمكان . ومن هويّة الشعب يُستنتَج نوع لغتهِ

الشعوب السابقة للعهد السامي : لقد اجمع عدد من علماء الآثار والتاريخ الحديثين

على ان سوريا قبل ان رفع التاريخ عنها حجابه كانت موطنًا لشعب اوربي" غير سامي[١]. وذلك بدليل ما وُجد فيها من الآثار التي يرجع عهدها لعصر الظُرّان ، والتي لا يمكن ان تكون ساميةً ، لان الشعوب السامية ، على ما تدل عليه لغاتها ، كانت قد بلغت شأواً بعيداً من المدنية قبل انفصالها بعضها عن بعض وتفرُّقها في بلدان آسيا الغربية

ان اكتشافات مَكلِستر التنقيبية في تل الجَزَر[٢] تثبت وجود اقوام اقاموا هنالك حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م تدل بقاياهم عَلَى انهم كانوا قصار القامة غلاظ العظام ومن سكان الكهوف، وانهم جروا على عادة إحراق موتاهم وهي — كما هو معلوم — عادة غير ساميّة[٣]. ويستنتج مكلِستر من تنقيباته ان العنصر الساميّ لم يدخل بلدة جزَر الاّ بعد ذلك بنحو خمسة قرون. ومن الآثار القديمة التي اكتشفها شومخر[٤] شرقي الاردن ما يرجع في الراجح الى العهد السابق للعصر السامي. ومنذ تسع سنوات عثر هوغرث، ووُلي، ولورنس[٥] في عاصمة الحثيين القديمة عَلَى الضفّة الغربية من الفرات ، وهي المعروفة اليوم باسم جرَابلس ، على ما يثبت وجود شعب استوطن هذه المدينة من اعمال سوريا الشمالية قبل ان ادركها الشعب السامي

وفي متحف الجامعة الاميركانية في بيروت عاديّات وأوانٍ خزَفية من خرابات جبيل تجانس — على ما يقول وُلي — الآثار الخزَفية السابقة للعهد السامي" المكتَشفَة في تل الجزَر جنوبًا وجرَابلس شمالاً، ومنها يجوز لنا ان نستنتج ان انتشار الشعب غير السامي كان عامًّا في سوريا

ولنا عدا الشهادات الأَثرية مستندات اثنولوجية[٦] تؤيد ذلك. فالنقوش المصرية

---

(١) ص ٦ "Lewis B. Paton, "Early History of Syria and Palestine

(٢) وفي التوراة "جازَر" قض ٢٩:١. وموقعهُ عَلَى مسافة ١٦ ميلاً من يافا قرب مكان يدعى "ابو شوشه"

(٣) مجلد ١ ص ٦ و٥٨ "R. A. Stewart Macalister, "Excavations of Gezer

(٤) ص ١٢٣ "Schumacher, "The Jaulan

(٥) وهو الكولونل لورنس المعروف في تاريخ النهضة العربية الحديثة

(٦) الاثنولوجيا علم يبحث بهِ عن اصول الاجناس وانتشارها

والاشورية القديمة تمثّل السوري في الغالب بصفتهِ اسمر اللون اسود الشعر الاَّ انها احياناً تمثّلهُ كأنهُ اشقر اللون احمر الشعر (١) ٠ والتقاليد اليهودية تشير الى ان يافث—الاشقر—اخي كنعان وسام كان من سكان فلسطين (٢) ٠ وفي نصوص العهد القديم آيات تدل على تذكارات لها علاقة بشعوب غريبة سالفة كالحوريّين مثلاً الذين "طردهم بنو عيسو وابادوهم من قدامهم"(٣) ٠ على انهُ يصعب علينا الجزم بان الحوريّين هم نفسهم الشعب الاوربي الذي اتخذ هذه البلاد مسكناً لهُ قبل نزوح بني سام اليها

ما حلَّ بهذه الشعوب هو انها في الراجح انقرضت امام القبائل الساميَّة الزاحفة٠ ولا شك ان بعضها امتزج بالساميين بواسطة التزاوج امتزاج الماء بالراح بحيث لم يعد يمكن افراز العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين ، وهو ما حلَّ بعد ذلك بكثير من الأسر اليونانية والرومانية والصليبية على ما سنبيّنهُ فيما يلي ٠ وبموجب مبدإِ العودة الى الاصل نرى بين العبرانيين آثار دم غيرسامي كما كان داود مثلاً فانهُ على ما نصَّ الكتاب كان "اشقر جميل المنظر"(٤) ٠ والذي يتجوّل في ايامنا هذه بين قرى فلسطين ولبنان لا تُعدَمهُ رؤية البعض من ذوي العيون الزرقاء والبشرة البيضاء الذين يرجع اصلهم ولا شك الى دم سوري اصلي ان لم يكن الى دم صليبي

والذي نرجّحهُ ان في القرون السابقة للعهد التاريخي استوطن ضفة البحر المتوسط كلها —بما فيها سوريا ومصر واغريقية (اليونان) وايطاليا – شعب اوربي الاصل ، غير سامي الملامح، وبقي في سوريا الى ان طمت عليهِ موجات الاقوام السامية(٥) فانقرض بعضهُ بالحروب وابتلع الآخر بالتزاوج

والمحصّل من كل ذلك ان اللغة الأُولى المحكية في سوريا على ما نعلمهُ الان لم تكن لغة سامية٠ وذلك جلُّ ما نستطيع ان نقولهُ بشأنها٠هذه اول قضية نريد تقريرها

---

(١) ص٤—٥ Paton (٢) تك ٩ : ٢٧ (٣) تث ٢ : ١٢ (٤) صموئيل الاول ١٧ : ٤٢ (٥) وفي كتاب ظهر حديثاً بقلم C. Autran من المدرسة الافرنسية للآثار الشرقية في القاهرة وعنوانهُ "Phéneciens" ان الميسنيين الذين اقاموا في بلاد اليونان قبل العصر اليوناني المعروف ازدهروا على السواحل السورية من نحو سنة ٢٣٠٠ ق٠م الى قدوم الفينيقيين نحوسنة ١٣٠٠ وهوراي بعيد عن الاحتمال

اللغة الساميَّة الاصليَّة

ما لنا وللعصور السوابق للتاريخ ، فسوريا بلاد ساميَّة منذ اوائل عهدها . ويصح القول على سبيل الاجمال انها ابداً كانت ولم تزل بلاداً سامية بقومها ولغتها وبدينها ومدنيَّتها فما هي تُرى اقدم لغة سامية نطق بها ابناؤها ؟

لا بد قبل الجواب علَى هذا السؤال من معرفة مَن هم الشعوب الساميون ، وما هي اللغات السامية وعلاقة بعضها ببعض ، وفَهم النظرية بشأن مهد الجنس السامي وموطن أُمّ اللغات السامية

اذا نظرنا الى خارطة العالم القديم نرى ان البلدان التي يتكلم اهلوها اليوم لغات سامية هي (١) سوريا الى جبال طورس شمالاً و (٢) وادي الدجلة والفرات من راس الخليج الفارسي جنوباً الى الموصل وديار بكر شمالاً و (٣) شبه جزيرة العرب و (٤) الشواطئ الافريقية الشمالية من مصر والحَبَشة شرقاً الى الجزائر ومراكش غرباً . ثم اذا عدنا بعين الذاكرة الى الاعصر الفائتة نجد ان هذه البلدان نفسها (ما عدا البلدان الافريقية الغربية) هي التي توطَّنها البابليون والأشُوريون والعبرانيون والفينيقيون والآراميُّون والمصريون الاقدمون والإثيوبيُون . واذا قارنَّا بين اللغات التي تكلمتها هذه الاقوام من بابليَّة وآرامية وعبرانية وعربية وحبشية نرى بينها من التجانس والتقابل ما يخوّلنا حق ارجاعها الى اصل واحد . فمن خصائصها المشتركة (١) ان الاشتقاقات فيها كلها ترجع الى اصل ثلاثي الاحرف (٢) ان الضمائر فيها كلها متشابهة اللفظ والمبنى (٣) ان لكلها فعلين فقط ماضياً ومضارعاً (٤) ان تصاريف الافعال فيها تجري على اسلوب واحد (٥) ان تركيب الجمل فيها متقارن متماثل (٦) ان في كلها الفاظاً مترادفة متقاربة تدل على اصل ساميّ واحد كليث "وارض" "وشمس" "وثور" "ولسان" (١)

فنسبة هذه اللغات بعضها الى بعضها والى أُمّها السامية كنسبة اللغات الافرنسية والاسبانية والبرتغالية والايطالية بعضها الى بعضها والى أُمّها اللاتينية . والفرق بين

---

(١) لسان بالعربية تقابل لِشَانو بالاشورية ، لَشُونْ بالعبرانية ، ولِشَانَا بالسريانية . ولفظة ثور يرادفها شُورو بالاشورية ، وشُورْ بالعبرانية ، وتَورُا بالسريانية

الفريقين ان الام السامية انقرضت و بقيت فروعها بخلاف اللاتينية التي عمّرت للآن في الكتب والمخطوطات

ومن الجدول عَلَى الصفحة التالية تتبين علائق هذه اللغات السامية بعضها ببعض

ثم اذا عارضنا المنشآت الاجتماعيّات والمزايا العقلية المختصة بهذه الشعوب البابليّة والعبرانية والآرامية والعربيّة ودرسنا خصائصها الفسيولوجية وملامحها الوجهية نرى بينها من التقارب والتماثل ما يخوّلنا حق الاستنتاج انها كلها ترجع الى جذع قوميّ واحد٠ فاللغة والعقلية والتركيب البشري والاصطلاحات الاجتماعية كلها تشير الى وحدة المبدإ والاصل

فالنظرية اذاً الذي يعوّل عليها معظم المستشرقين انهُ لا بد من يوم عاش فيه في بقعة من البقاع قبيلة سامية منها تشعبت الشعوب السامية المعروفة ، وان تلك القبيلة كانت تتكلّم لغة سامية واحدة ، لا أثر لها الان ، منها تفرّعت اللغات السامية المألوفة ٠ فاين عاشت تُرى تلك القبيلة ؟ و بعبارة اخرى ما هو مهد الجنس الساميّ واين هو ؟

مهد الجنس الساميّ

لقد ذهب الباحثون في تعيين موطن الساميين الاول مذاهب ثلاثة رئيسية اوّلها ان بلاد بين النهرين وبابل هي المقام الاول الذي منهُ تفرّق الجنس السامي وارتحلت اسباطهُ للجنوب والغرب ٠ وفي طليعة القائلين بهذا الرأي كريمر Kremer وفون هُمل von Hommel الالمانيان وغويدي Guidi الايطالي صاحب المحاضرات المعروفة في الجامعة المصرية ٠ و براهين غويدي تُعتَبر اقوى ادلّة أُقيمت لدعم هذا الراي ٠ واوّل من بحث في تاريخ اللغات السامية بحثاً علميًّا وأسهب فيهِ هو العالِم الافرنسي ارنست رنان٠ و يلوح من كتاباته انهُ يعتبر اعالي ارمينيا الوطن الاول للساميين (١) ٠ ويعتمد الكثيرون من اتباع هذا الرأي عَلَى اقوال العهد القديم لعَضد مبدإهم

امّا اصحاب الراي الثاني فيجعلون افريقيا الشمالية الشرقية المهد السامي ٠ ومن هؤلاء بلغريف الانكليزي Palgrave ونلدكه (٢) الالماني والاستاذ جسترو Jastrow الاميركي

(١) ص ٣١—٣٢ من الطبعة الرابعة Renan, "Histoire des Langues Sémitiques"

(٢) ص ١١ Nöldeke, "Semitischen Sprachen"

- الأرومة السامية
  - الفرع الشمالي
    - ا — الأمورية
    - ب — الاشورية البابلية (الاكادية)
    - ج — الكنعانية
      - (١) العبرانية
      - (٢) الفينيقية
    - د — الآرامية
      - الشرقية: السريانية والمندوية
      - الغربية
        - (١) آرامية الكتاب المقدس
        - (٢) النبطية
        - (٣) التدمرية
  - الفرع الجنوبي
    - ا — العربية
      - (١) الشمالية
      - (٢) الجنوبية: السبئية
    - ب — المهرية السقطرية
    - ج — الاثيوبية (الحبشية)
      - (١) التغرية
      - (٢) التغرينية

المتوفى حديثاً . والبراهين التي يُوردها اتباع هذا المذهب اكثرها فيلولوجية مبنية عَلَى التجانس بين اللغات السامية من جهة واللغات المصرية القديمة والقطبية والبربرية والكوشية من جهة اخرى . وفي اعتقادهم ان الساميين والحاميين[١] من جذع واحد وان الساميين انفصلوا عن الحاميين ونزحوا من افريقيا لآسيا الغربية ومنهم تحدَّرت الشعوب السامية التاريخية

انما الراي الوجيه الذي انحاز اليهِ موءخَّراً معظم العلماء هو الرأي القائل بان شبه جزيرة العرب هي الموطن الاصلي للدوحة السامية العظمى . ومن اول دعاة هذا الراي شبرنغر الالماني الذي في سنة ١٨٦١ اشار الى ذلك في احد تآليفه[٢] وفنَّد النظرية البابلية بما ارتآه من انَّ مَن كان في طور اجتماعي زراعي — كابناء البلاد البابلية — لا يُحتمل ان يتحولوا الى عيشة البداوة عَلَى ما تقتضيهِ الحال في البلاد العربية ، ولكن على عكس ذلك فسُنن الاجتماع تقضي بالانتقال من البداوة الى الحضارة والزراعة . ومن الذاهبين هذا المذهب ده غويه de Goeje الهولندي وسايس Sayce[٣] ورَيْط Wright الانكليزيان وهو المذهب الذي يقول به معظم علماء الشرق كضومط[٤] وزيدان[٥] وغيرهما . وفي اللغة الانكليزية ليس من تفصيل لهذه الاراء اوفى مما جاء بهِ الاستاذ بارطن الاميركي[٦]

الادلة على ان بلاد العرب هي المهد السامي : اما الاعتبارات التي تجعل لهذا الراي مسحة من القبول فهي اولاً ان جغرافية البلاد العربية توءذن بقسمة سطحها الى جزء داخلي معظمهُ صحراء قفراء غير صالحة للسكن وشقةٍ بحرية ضيقة تُتاخمها المياه ، فمتى ازداد عدد السكان عن سعة البلاد فلا يبقى لهم سوى الرحيل وذلك اما شمالاً لسوريا او غرباً لافريقيا او شرقاً لما بين النهرين . وثانياً ان سكان العربية يمتازون للان بمعظم الخصائص التي

---

(١) المصريون الاقدمون والبربر من سكان افريقيا الشمالية هم حاميون وبهم امتزج العرب بعد الفتح الاسلامي في بلاد المغرب

(٢) ص ٢٤١ Sprenger, "Leben und Lehre des Mohammed"

(٣) ص ١٣ Assyrian Grammar (٤) راجع مقالته في اللغة العربية المنشورة في مجلة الكلية سنة ١٩١١ (٥) راجع كتابهُ «العرب قبل الاسلام» ص ٣٢—٣٤

(٦) ص ١ — ٣٠ George A. Barton "Semitic Origins" راجع ايضاً المجلد الاول ص ٣٠٦—٣٠٧ Robert W. Rogers, "History of Babylonia and Assyria"

اشتهر بها الشعب السامي واهمها حرارة الايمان وشدة التصوُّر والجسارة والرغبة في الانفراد والاعتزال ، الى غير ذلك مما ينطبق على مقتضيات حالة بدَوية بسيطة ويشير الى اصل فطري في بلاد رملية واسعة . وثالثاً ان اللغة العربية حافظت اكثر من كل اخواتها الساميات عَلى الاوضاع السامية والاصول القديمة . ورابعاً ان السُنّة الاجتماعية تستلزم التحوّل من طور البداوة الذي تقتضيهِ بلاد العرب الى طور الزراعة الذي تقتضيهِ غيرها من البلدان السامية المجاورة كالعراق وسوريا والحَبَشة . وخامساً ان بعض قبائل العرب ما زالت الى يومنا هذا وعَلى مرأى من الجميع تتسرّب الى فلسطين والجزيرة ومصر وتقيم عَلى الضواحي حيث تستبدل بيوت الشعر ببيوت الطين والحجر وتمتزج مع غيرها من السكان ، مما يمكن اتخاذه مثالاً لما كان يجري في سالف الاحقاب

ولا بد في هذه المناسبة من الاشارة الى انهُ قام مؤخراً احد الاساتذة الاميركيين واسمهُ كلاي Clay من جامعة يايل وحمل حملات عنيفة على النظرية العربية وفنّد مستنداتها واحدة فواحدة في كتاب لهُ حديث [١] ووضع مذهباً جديداً خلاصتهُ ان امورو — اي سوريا الشمالية بما فيها البقاع ولبنان [٢] — هي الوطن الاول للساميين وعلى الاخص الشماليّين منهم ، وان البابليين والاشوريين نزحوا عنها الى الشرق ، وان المدنيَّة السورية والعبرانية والفينيقية ليست دخيلة من بلاد العرب او من غيرها بل اصلية وطنية متشعبّة عن المدنية الأَمورية القديمة [٣]

الموجات السامية : اذا سلّمنا ان بلاد العرب هي الموطن الاصلي للشعب السامي وللغة السامية يبقى علينا امر واحد وهو ان نشرح كيفية نزوح القبائل السامية الى البلدان التي يسكنها اليوم ساميون . ولإيضاح ذلك يجب ان نعتبر ان النزحة الاولى اتخذت الطريق الشمالي الشرقي الى وادي الفرات وبلغت أشدها حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. تلك هي الهجرة البابلية . وعقب ذلك موجة ثانية هي الموجة الأَمورية الكنعانية التي تعاظم امرها حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م واتخذت سوريا وجهتها . وتلاها نحو سنة ١٥٠٠ ق.م موجة ثالثة هي

---

(١) ص ٢٧—٤٩ Albert T. Clay, "The Empire of the Amorites"

(٢) تجد في عدد ١٣ : ٢٩ وتثنية ١ : ٦ اشارة الى الأَموريين الساكنين في الجبل

(٣) راجع مؤلَّفهُ "Amurru the Home of the Northern Semites"

الموجة الارامية بما فيها من القبائل الموآبية والأدومية وغيرها التي استوطنت سوريا وفلسطين. وحوالى سنة ٥٠٠ ق.م بلغت الموجة الرابعة أوجها وهي الموجة التي نقلت الأنباط الى شبه جزيرة سيناء. وبعد المسيح بنحو ستة قرون حدثت الموجة الخامسة والاخيرة وهي الهجرة العربية الاسلامية التي بلغت اشد درجاتها في إبان الفتوحات الاسلامية في فارس والعراق وسوريا ومصر

ويؤخذ من مراجعة التواريخ المذكورة اعلاه ان بين الموجة الواحدة والأخرى نحواً من الف سنة. وبعبارة أخرى كان يقتضي للحوض العربي نحوٌ من عشرة قرون ليمتلئ ويطفح ويفيض على جوانبه

وأوَّل مَن وضع هذه النظَرية — نظرية الموجات في فترات متتابعة منتظمة — هو ڤنكلر الالماني [1]. واول مَن أفاض في شرحها بالانكليزية هو پاطن [2] الاميركي

ولا يتوهمنَّ القارئ ان المقصود ان هذه الموجات كانت تحدث بغتةً او دفعةً واحدة فان ذلك مخالف لنواميس الهجرة الطبيعية، بل المقصود انها كانت تستغرق سنيناً واعواماً. وهي اشبه بنزوح الشعوب الاوربيّة من المانية وايرلندة وغيرها في ايامنا الى الولايات المتحدة، او اليهودية الصهيونية الى فلسطين — لولا ان البعض من المهاجرين اليهود يُقدمون على المهاجرة اجابةً لتشويقات ولمرغبات اصطناعية لا لعوامل طبيعية

يتحصَّل معنا مما سبق ان البابليين هم اول الشعوب السامية التي انفصلت عن الجَذع السامي. ولكنَّ البابليين اتخذوا وادي الفرات مقاماً، فلا علاقة لهم وللغتهم ببحثنا. اما الأموريّون فهم اول الشعوب السامية التي استوطنت سوريا ولبنان وفلسطين على ما نعلم. وعليه فاللغة الساميَّة الاولى المحكيَّة في هذه البلدان هي اللغة الأموريّة. تلك هي القضية الثانية التي نريد تقريرها في درسنا هذا

أَللغة الأَموريّة

يُؤخَذ من أَبحاث الاستاذ كلاي ان اللغة الأَموريّة كانت لغة ساميّة محكيّة لامكتوبة وان دولة الاموريّين دالت قُبيل سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح، ولكنّ اللغة استمرّت وتركت

---

(١) Hugo Winckler, "Geschichte Babyloniens und Assyriens"

(٢) Paton, "History of Syria and palestine" 1901, ص ٦—٧

آثاراً في اللغات البابليّة والآرامية والعبرانيّة[١] ، ودوائرها لم تزل للآن مميّزة في هاته اللغات . وما ذلك بالكل بل الاستاذ يعتبر الأموريّة أُمّاً للبابلية والآرامية والعبرانية[٢] وان العبرانية هي اقرب اللغات اليها . وهو يصرّح ان درس أسماء الاعلام الواردة في البابلية والكبدوكيّة التي يرتقي عهدها لما قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م درساً فيلولوجياً يثبت وجود اسماء أمورية عديدة بينها . ومن المحتمَل ان يكون بعض الاموريّين كتبوا الأمورية بالخط المسماري البابلي على صُحف خزَفية للآن لم يعثر النقّابون على شيء منها ، او بخط اموريّ خاصّ على مادّة غير صلبة سريعة التلف كالبُرديّ أفنتها العناصر ولم تُبقِ لها أثراً . ومن المعلوم ان الحفريات في سوريا لم يتجاوز عددها للان عدد اصابع اليد . وقبل اكتشافات پتري Petrie وبلسّ سنة ١٨٩٤ في تلّ الحسي التي يرجع عهد اقدمها لسنة ١٧٠٠ ق.م[٣] ، واكتشافات مكلستر سنة ١٩٠٢—١٩٠٩ في تل الجزَر ، وسلن Sellin في تعَنك[٤] التي يرتقي تاريخ اقدم آثارها لسنة ٢٠٠٠ ق.م . وفي تلّ المتسلِّم (اللّجون = مجِدُّو[٥]) ، واكتشافات جامعة هرڤرد في سبسطيه (السامرة) ، ما كان العالَم يعرف شيئاً مذكوراً عن كتابات الشعوب السامية في سوريا . فمن له ان يفقه ما تضمرهُ لنا بطون الارض في سوريا ولبنان من الكنوز التاريخية والحقائق اللغوية

اللغة البابلية الاشورية : تاريخ سوريا وفلسطين القديم مرتبط ارتباطاً محكماً بتاريخ بابل ومصر . فمن نحو سنة ٢٢٣٠ ق.م الى ١٧٠٠ ق.م كانت البلاد السورية ولا سيما الجزء الشماليّ منها — المشار اليه في الكتابات البابلية باسم « مارتو » — تحت تأثير النفوذ البابلي . فوجدت اللغة البابليّة مقيلاً في البلاد . ولكننا نرجح انها قطّ لم تصبح لغة العامة فيها[٦] بل بقيت لغة السياسة والتجارة . وعقيب سنة ١٥٧٥ ق.م في أيام

---

(١) بشان علاقة بني اسرائيل بالاموريين راجع عدد ٢١:٢١—٣٥ وتثنية ٢:٢٤—٣٧

(٢) ص ٦٢ "Empire of the Amorites" .

(٣) "Frederick Bliss, "A Mound of Many Cities (٤) يشوع ١٧:١١

(٥) الملوك الاول ٤:١٢ (٦) وبذلك نخالف الاب لامنس الذي يستنتج من كتابة رسائل تل العمارنة بالبابلية ان تلك اللغة كانت لغة اهل سوريا ولبنان . راجع مقالته النفيسة « تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار » المشرق سنة ١٩٠٣ ص ٧٠٣

أحموزه مؤسس الدولة الثامنة عشرة في مصر وفي عهد احد خلفائه تطموزه الثالث دخلت سوريا — واسمها « رُوطنو » في النقوش الهيرغلفية — في حوزة الفراعنة ، وبقيت تحت السيطرة المصرية وعلى الاخص الجزء الجنوبي منها — اي فلسطين ، الى حوالي سنة ١٢٠٠ ق٠م ٠ ولم تترك المدنية المصرية من آثار تذكر حتى على مدنية فلسطين٠ ولولا بعض الخنافس المنقوشة والانصاب المحفور عليها بعض الرموز الهيرغلفية لما كان من شيء لدينا الان يذكرنا بهذا العهد المصري القديم في بلادنا[١] ٠ ولا نستغرب ذلك اذا تذكرنا ان الفراعنة مع طول عهد استيلائهم على فينيقية وفلسطين لم يهتموا باستعمار البلاد وكانوا يكلون امر تدبير شؤونها المحلية الى عمال وطنيين٠ واما جنودهم فكانت بالاكثر من المرتزقة (الجنود المأجورة) وعددها قليل ٠ وكم يا ترى يبقى من الآثار التركية في سوريا ولبنان بعد ثلاثة آلاف سنة من الآن ليذكر العالم بان هذه البلاد ظلت اربعة قرون كاملة تحت الحكم التركي ؟

مراسلات تل العمارنة : في سنة ١٨٨٨ عثرت فلاحة مصرية في الصعيد، وهي تنقب الارض في مكان يقال له تل العمارنة ، على الواح خزفية كتبها "ملوك" سوريون وفلسطينيون في جبلة وعكا وصور وغيرها من المدن الساحلية وارسلوها الى امنهوتب الثالث والرابع (سنة ١٤٠٠ ق٠م) يطلبون فيها النجدة على الغزاة الحثيين الذين كانوا عندئذٍ يهددون المدن السورية٠ ومن الغريب ان تلك الالواح كتبت باللغة البابلية مع ان سوريا يومئذٍ كانت تحت السيادة المصرية وكان النفوذ البابلي السياسي قد تقلص عن سوريا قبل ذلك بقرنين او ثلاثة قرون ٠ ومما يدل على ان البابلية لم تكن اللغة المحكية في سوريا وجود اغلاط لغوية عديدة في تلك الكتابات والفاظ كنعانية مدسوسة بين الالفاظ البابلية ٠ ويلوح لنا ان لغة بابل كانت في تلك الايام لغة السياسة الدولية والتجارة الاجنبية في كل انحاء آسيا الغربية ٠ وشأنها في ذلك شأن اللغة الافرنسية في عصرنا الحاضر

ومن الكلمات التي انسابت من البابلية الى اللغات السامية التي عقبتها في سوريا ولم تزل

---

(١) لقد اكتشف حديثاً الاستاذ مُنته من جامعة شترسبورغ بقايا واجهة هيكل في جبيل يُظنّ انهُ مصري

للان مستعملة فيها كلمة « هيكل » و « نبي » و « قربان » و « مسكين » (١)

ولم يكن للبابلية من احرف هجائية تكتب بها · بل كان لها علامات كل واحدة منها تمثل مقطعاً او كلمة ، كما هي الحال الان في اللغة الصينية · وكانت تطبع بمسمار رأسهُ مثلث على الواح خزفية طرية ثم تجفف في الشمس او تشوى في النار · وكان لا بد من معرفة نحو ٣٠٠ علامة قبل التمكن من الكتابة بها · والعلامات مستعارة من السومارية التي تكلمها السومار يون وهم الاقوام المغولية التي وجدها البابليون في وادي الفرات لدى نزولهم فيهِ· فهي — اي العلامات — ليست سامية

الحثية : اما لغة الحثيين الذين وطدوا قدمهم في شمالي سوريا مدة طويلة ، وفي إبان مجدهم مدوا سلطتهم على لبنان والساحل و بعض فلسطين، فغاية ما نعرفهُ عنها انها غير سامية ولم تنتشر بين عامة البلاد ، والا ن لم يتوفق البحاثون لحل رموزها الهيرغلفية ولا نظنهم يقوون عَلَى ذلك قبل ان يكتشف احدهم كتابةً بلغتين على الاقل احداهما حثية والاخرى لغة غيرها معروفة ، كما جرى لشمبوليون عند مافك اسرار اللغة المصرية بواسطة حجر رشيد

ومن دواثر اللغة الحثية في اللغة العربية لفظة « شاغور » الكثيرة الورود في الاسماء اللبنانية كشاغور حمانا وشاغور عين عنوب (٢)

اللغة الفينيقية

اول لغة وُضعت في احرف هجائية هي اللغة الفينيقية وذلك قبل المسيح بنحو اثني عشر قرناً · والفينيقية لغة سامية ، وهي قسيمة اللغة العبرانية وشقيقتها · وهي اللغة التي استعملها ابناء الساحل السوري نحواً من ست او سبع مئة سنة بدايتها القرن الثاني عشر قبل المسيح · وفي الحقبة التي تقلَّص فيها ظلُّ الفراعنة عن سوريا وقبل ان زحف اليها الغزاة الاشوريون تمتَّعت الموانئ الفينيقية ، وأهمُّها صور وصيدا ، باستقلال ذاتي وزهت فيها التجارة والصناعة · ومن عجائب الدهر ان القوم الذين استنبطوا — او على الاقل نشروا حروف الهجاء الاثنين والعشرين و بذلك خدموا المدنية والعلم خدمةً لا تضاهيها خدمة

---

(١) من شاء الزيادة فليراجع Zimmern, "Akkadische fremdworter"

(٢) راجع لامنس « آثار لبنان » في المشرق سنة ١٩٠٢ ص ٧٦٣

أُخرى — لم يخلفوا آثاراً خطية تُذكَر، لان كتاباتهم كانت بالاكثر تجارية وعلى مادة سريعة التلَف . فأقدم الكتابات الفينيقية لا ترجع لِما هو قبل القرن السادس قبل المسيح واكثرها مما وُجد في قبرص ومصر والمستعمرات الفينيقية لا عَلَى الساحل السوري

وبقيت الفينيقية لغة اهل الساحل ولبنان الى ان اقتلعتها الآرامية كما سنبينهٔ فيما بعد

أَلعبرانيَّة

بينما كانت داخلية البلاد تتكلم الآرامية وسواحلها تتكلم الفينيقية كان يهود فلسطين يتكلمون اللغة العبرانية . والعبرانية هي من اقدم اللغات السامية ، وان كان عهدنا بها كلغة مكتوبة لا يرتقي لما هو قبل سنة ٩٠٠ ق . م وهو الزمن الذي كتب فيه مِيْشَع ملك موآب الحجر الموآبي" المحسوب اقدم اثر عبراني" تذكاراً لانتصارهِ على اسرائيل [(١)] . وَجد هذا الحجر مبشر انكليزي من القدس اسمه كلين Klein في ذيبان [(٢)] سنة ١٨٦٨ . والحجر محفوظ اليوم في متحف اللوفر وهو من اول التحف التي رُمنا رؤيتها لدى زيارتنا باريس في الشتاء الفائت

وبعد ان قضى سرجون الاشوري سنة ٧٢٢ ق . م عَلَى دولة اسرائيل وسبى اسباطها وبعد ان ضرب نبوخذ نصر الكلداني سنة ٥٨٦ ق . م مدينة اورشليم ونفى ابناءها ضُربت اللغة العبرانية ضربة كادت تكون قاضية لان متكلميها في بابل استعاضوا عنها بالآرامية وحافظوا عليها بعد رجوعهم الى فلسطين ، وبذلك تمكنت الارامية من يهود فلسطين واصبحت في اوائل القرن الثالث قبل المسيح لغتهم المحكية . وعلى الاجمال يصح القول ان اللغة العبرانية بعد اضطهاد انطيوخس السلوقي" والنهضة المكابية في القرن الثاني قبل المسيح اصبحت لغةً ميتة في فلسطين وفيما سواها ، واقتصر اليهود عَلَى استعمالها في الطقوس والكتب الدينية ، ومنها سفر دانيال الذي كتب سنة ١٦٦ ق . م بعضهُ بالآرامية واكثرهُ بالعبرانية

---

(١) ملوك ٢ الاصحاح ٣٢ (٢) هي ديبون المذكورة في عدد ٢١ : ٣٠

أَللُّغة اليونانيَّة

في سنة ٣٣٢ ق٠م اجتاح الاسكندر البلاد السورية واغتصبها من يد الفرس الذين كانوا تسلَّطوا عليها من زمن كورش قبل ذلك بنحو قرنين ، وبذلك دخلت اللغة اليونانية الى هذه الديار ٠ واللغة الفارسية هي اول لغة آريَّة وجدت الى سوريا سبيلاً ، ولكنها لم تتمكَّن قطُّ من البلاد ولم تترك لها أثراً مذكوراً عَلَى لغة الاهلين الساميّين لا في هذه الآونة ولا فيما بعد على عهد كسرى ابرويز الذي تغلَّب عَلَى سوريا سنة ٦١١ للمسيح٠ وعملاً بالمبدإ الذي جرى عليهِ كثيرون من الفاتحين اقتلع الخليفة معاوية قوماً من العجم واستقدمهم الى مدن بلاد الشام الساحلية وبعلبك عَلَى ما ذكر اليعقوبي[١] والبلاذري[٢] وربما كان من بقاياهم لليوم المتاولة والنصيرية٠ ومع ذلك فلا يحقُّ لنا اعتبار الفارسية من لغات سوريا البائدة ، لان استعمالها قط لم يعمّ بين الاهلين كلغةٍ يوميَّة

وبعد الاسكندر اتَّخذ خلفاؤُهُ السلوقيون انطاكية عاصمتهم وانشأُوا المستعمرات اليونانية وجاؤُوا للبلاد بالمهاجرين اليونانيين والمكدونيين ٠ فاقام المستعمرون في المدن واشتغلوا بالتجارة وانضموا الى مَن تخلَّف في البلاد من جيش الاسكندر ٠ وبذلك قوي العنصر اليوناني في المستعمرات السلوقية كانطاكية وافاميا (قلعة المضيق) وكلِسس (كلّس) واللاذقية وسلوقية ، وفي المدن الساحلية من فينيقية وفلسطينية ، وفي المراكز التجارية في داخلية البلاد كتدمر ودمشق ٠ عَلَي ان اللغة اليونانية لم تصبح قط في البلاد لغة العامة الذين اصرّوا عَلَى التكلُّم بالآرامية السريانية ، ولكنها كانت لغة السياسة والتجارة والعلم كما كانت البابلية من قبلها[٣] ٠ ومما يستحق الاعتبار ان الآرامية عَلَى عهد السلوقيين لم تكتفِ بالسيادة عَلَى سوريًّا فقط بل تناولت بلاد العراق واعالي العربية ايضاً

وفي بعض المدن كما في تدمر كانت اعلانات المحاكم تُنشر باللغتين اليونانية والآرامية معاً٠ وبعض الملوك السلوقيين في اواخر عهد الدولة تلقبوا بالقاب سامية كبَلاَس وزبِيناس وسرِبديس وغيرها ٠ وجرت عادة بعض الاشخاص السوريين على الحاق اسماء يونانية

---

(١) كتاب البلدان (طبعة ليدن) ص ١١٤ (٢) فتوح البلدان ص ١١٧

(٣) ص ١٠ — ١١ E. S. Bouchier, "Syria as a Roman province"

باسمائهم السامية — وامثلة ذلك كثيرة في اسفار العهد الجديد — أو ترجمة اسمائهم الى اليونانية ٠ ومن هولاء امير من امراء تدمر اسمهُ الاصلي «وَهب ٱللاّت» وعُرف باسم «اثينودورس» اي عطيّة اثينا (بدلاً من اللات)

اما اسماء المدن فالمستعمرات اليونانية منها كانطاكية واللاذقية (لاَوُذوسيه) فقد حافظت عَلى اسمائها اليونانية الاصلية ببعض التحريف، ولكنّ غيرها التي بدل اليونان اسماءها الآرامية الاصلية باسماء يونانية كحلب (بَرِيَا) وحماه (ابفانيا) ومَنبج (هيرابولِس) و بعلبك (هليوبولِس) وعكا (بطلمايوس) وتدمر (بلميَرا)، فانها ما لبثت ان استردّت بعد حين اسماءها الاصلية السامية واستمرّت عليها الى الآن

ثم انهُ بداعي التباين العظيم بين اللسانَين الآراميّ الساميّ واليونانيّ الآريّ بقيت اللغتان مفروزةً احداهما عن صاحبتها غير ممتزجتين كما بقيت العربية مفروزةً عن الاسبانيولية في الاندلس ٠ وكما ان العربية والاسبانيولية تبادلتا كثيراً من المفردات كذلك الآرامية واليونانية تقارَضَتا الالفاظ كما يتبيَّن من درس لغة اسفار العهد الجديد المكتوبة باليونانية ودرس الكتب السريانية القديمة

اما لبنان فقلّ مَن اقام فيهِ من اليونانيين الاّ ترويحاً للنفس او لأَجل معين ٠ ولذلك قلَّما تجد من اسماء الامكنة اللبنانية ما يمكن ردهُ الى اصل يونانيّ ٠ وربما كانت «الكورة» من كلمة يونانية معناها الناحية ، و«طاميش» من ارطاميس الإِلاَهة ، و«جونية» من كلمة معناها الزاوية ٠ و«بالجملة ليس في لبنان اكثر من عشرة اعلام مكانيّة يمكن ردها الى اصل يوناني» (١) وهو عدد يسير لا يعبأ بهِ بالنسبة للاعلام الموفورة الثابتة ساميّتها

اللاتينيَّة

في سنة ٦٣—٦٤ اجتاح القائد الروماني بومبِاي البلاد السورية فدخلت في حوزة الرومان واضافت الى عداد لغاتها لغةً آريّةً اخرى هي اللغة اللاتينية التي اصبحت لغة المحاكم والتشريع — لا لغة السوق والبيت — وظلّت عَلى ذلك الى ما بعد المسيح بنحو ثلاثة قرون ٠ ومما لا ريب فيهِ ان لغة التدريس في كلية الحقوق التي ازدهرت في بيروت في القرن الثالث والرابع والخامس بعد المسيح كانت اللغة اللاتينيّة

---

(١) لامنس "النتائج التاريخية من درس اماكن الاعلام اللبنانية" ٠ المشرق سنة ١٩٠٦ ص ٨٢

ومما هو حريّ بالاعتبار ان الفاتحين الرومان كانوا يختلفون عن الفاتحين اليونان بعدم اهتمامهم بدرس اخلاق ولغات القوم الذين كانوا يتسلطون عليهم . وفي سوريا كان المستعمرون منهم اقل عدداً من المستعمرين اليونان الذين تقدّموهم ، وكان بعضهم ولا شك يحسن التكلم باليونانية . ومعظمهم اقاموا في مدن السواحل والمراكز التجارية لا في الجبال والقرى ، فاصابهم بتوالي الاعوام ما اصاب المستعمرين اليونان والغزاة الصليبيين اي انهم تطوّحوا في الحظوظ النفسانية وانغمسوا في الرّفاه والرّخاء وازدحموا في المدن حيث تنتشر الامراض الوافدة والاوبئة الفتّاكة وتكثر الوفيات ففسد دمهم وانقرض جلّهم بتوالي الاعوام ، وانقرضت معهم لغتهم ، ومن لم ينقرض اندمج بالوطنيين والتحم بهم . ومن المعلوم ان السوري من اشد الامم حيوية ومحافظةً على كيانه . فانه طالما هضم ومثّل في جسمه من الشعوب وثبت على قوميته وخصائصه . واذا كان عدد الأُسر التي تعمّر طويلاً في المدن قلّت في وقتنا هذا مع توفّر الاسباب الصحية لها ، فماذا كانت حالتها في الاجيال القديمة . فالبرّ والجبال في كل عصر وبلاد هي التي تتكفّل بامداد المدن بالدم الجديد المنعش للاجسام والمشدّد للقوى

ففي العهد الروماني إذن كما في العهد اليوناني الذي سبقهُ كانت الارامية لغة اهل البلاد ، وكان العنصر الغالب في كلا العهدين العنصر السامي لا العنصر الاوربي

ومما يدل على عدم تمكن اللغة اللاتينية من اللبنانية انها لم تترك اثراً على اسماء الامكنة فيه وربما كانت « غسطا » اللفظة الوحيدة التي يمكن ان نعزوها الى كلمة لاتينية هي أُغسطس . اما في فلسطين فمن الاسماء اللاتينية « طبرية » المنسوبة الى طيباريوس الامبراطور و « قيسرية » المنسوبة الى القيصر . ومن المحقق ان القديس يوحنا فم الذهب الذي زها في اواخر القرن الرابع في انطاكية المستعمرة اليونانية لم يكن سامعوه دائماً يفهمون لغتهُ لانهم كانوا من متكلمي السريانية

ولا عبرة بالكتابات اليونانية واللاتينية التي نجدها في سوريا ولبنان ، فان اكثرها مما أمر بنقشهِ رجال الحكم او العلم . ووجود اغلاط عديدة فيها ممّا يثبت ان الذين عهد اليهم امر كتابتها كانوا يرسمون الالفاظ على طريقة ميكانيكية دون ان يدركوا معانيها[1] . ولا

---

(١) لامنس : "آثار لبنان" . المشرق ١٩٠٢ ص ٨٠٦

ننكر ان عدداً من الوجهاء السور يين جنحوا للآداب اليونانية والرومانية كما يجنح في ايامنا عدد من مواطنينا « للتفرنج » وللاقتباس من لغات الاور بيين ومصطلحاتهم

وخلاصة البحث ممّا مرّ أنّ اللغة الشائعة في سوريا ولبنان من اول فجر التاريخ كانت ابداً لهجةً سامية من أمورية اوّلاً فآرامية وفينيقية وعبرانية ثانياً ، وان اللغات غير السامية من فارسية ويونانية ولاتينية عجزت عن ان تسيطر فيما سوى الدوائر الرسمية على لسان الاهلين

أَلَّغة الآراميَّة أُلسُّريانيَّة

إذا كان لا بدّ من تعيين لغة أَصلية لأَبناء سوريّا ولبنان فاللغة الآرامية — وبنوع أخصّ السريانية — هي تلك اللغة الأَصلية . فانّ الأَهلين على سبيل الإِجمال تكلّموها من نحو القرن السادس قبل المسيح الى بداءَة القرن التاسع بعد المسيح . وبلاد « آرام » هو الاسم الذي عُرِفت بهِ سوريا الشمالية الى ان اطلق عليها اليونان اسم « سوريا » . وفي كتابات العهد القديم اشارات جمة الى « آرام دمشق » (١) و « آرام النهرين » (٢) ممّا يدلّ على ان لفظة آرام كانت تشمل سوريا الشمالية والمجوّفة مع بلاد ما بين النهرين

ولقد كان للآراميين في القرن التاسع قبل المسيح ملك ضخم مستقلّ بزعامة دمشق وحماه ناوأ الاشوريين ووقف سدّاً في سبيل تقدمهم نحو الغرب (٣) . ومن اشهر ملوكهم حزَائيل وابنهُ بَنْهَدَد (٤)

وليس بين اللغات السامية لغة تضاهي الارامية من حيث الغنى اللفظي وسعة الانتشار وشدة النفوذ سوى شقيقتها العربية التي خلَفتها واحتلت محلّها في سوريا . اما من حيث القدم فالأَولى هي السابقة

انتشار الارامية : اللغة الارامية اليوم تكاد تكون ميتة لولا شراذم قليلة لم تزل تتكلّم بها في طور عبْدين (جبال فيما بين النهرين) ، وفي بقاع شماليّ الموصل وشرقيها ، وفي جبال كردستان ، وقرب بحيرة أُروميه (٥) ، وفي معلولا من اعمال الشام . اما في سالف

(١) اخبار الايام الاول ١٨ : ٥ وصموئيل الثاني ٨ : ٦ (٢) اخبار الايام الاول ١٩ : ٦ وصموئيل الثاني ١٠ : ١٦ (٣) ص ٧٣ — ٨٤ Kraeling, "Aram and Israel" (٤) الملوك الثاني ١٣ : ٢٢ — ٢٥ (٥) معظم هولاء من النساطرة ولقد جاءَت الحرب الاخيرة قاضية عَلَى كيانهم فقُتل بطريركهم مار شمعون وتشتت شملهم

الاحقاب فانها كانت اللغة اليومية لسائر ابناء الجزيرة وسوريا وفلسطين وبعض آسيا الصغرى وبلاد فارس ومصر [١] . وهي اللغة التي نطق بها السيد المسيح واليهود في سوريا ومصر ، وكان هؤلاء يكتبونها بالاحرف العبرانية . ومن المقرّر ان الارامية كانت لغة العامّة في عهد المملكة الاشورية ، وكانت الاشورية اللغة الرسمية . ويظهر من وصف كتبة العهد القديم لغزوة سنحاريب في بلاد يهوذا ان الموظفين الاشوريّين كان يُنتظر منهم ان يجيدوا الكلام بالارامية [٢] . ونجد في « التاريخ القديم » للاستاذ برستد [٣] صورة نقش يرجع عهده للقرن الثامن قبل المسيح يمثّل قائداً أشوريًّا يلقّن كاتبيه مغانم احدى غزواته ، وفي يد احد الكاتبين لوح خزفي يكتب عليه بالاحرف المسمارية ، اما الكاتب الاخر ففي يده قلم حبر وهو يكتب بهِ بالارامية على ورق من البُردي . وفي النصوص ما يثبت ان في العهد البيزنطي كان الموظفون القادمون الى سوريا يعتمدون على التراجمة للتفاهم مع الاهلين المتكلمين بالارامية [٤] .

ولما انقضى العصر البابلي الاشوري احتلت اللغة الاراميّة محل البابليّة في السياسة والتجارة واصبحت اللغة الرسمية لملوك فارس وآرام وتدمر وبَطْرا (سماّها العرب الرقيم وهي في وادي موسى للشمال الغربي من معان) . فالآثار والنقوش تدلّ على ان اللغة الرسمية التي كانت تتداول بها الامم الحيّة في القرون الاولى قبل الميلاد ، من فارس شرقاً الى سوريا غرباً ، ومن اشور شمالاً الى فلسطين ومصر جنوباً ، انما هي اللغة الارامية . والارامية لم تزل للان لغة الطقوس الكنَسية لمعظم مسيحيّ الشرق الادنى من نساطرة ويعاقبة وسريان كاثوليك وموارنة وسريان هنود في ملبار من أعمال الهند . وفي المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين في بيروت مجلدات وكراريس دينية في اللغة الارامية كانت مستعملة قديماً في الكنيسة الانطاكية [٥] . وفي خزائن اوربا من هذه الكتب الطقسية للملكيين مئات .

---

(١) يوسف داود مطران دمشق على السريان : "نحو اللغة السريانية" ص ١٩٣

(٢) الملوك الثاني ١٨ : ٢٦ (٣) ص ١٤٧ "Breasted, "Ancient History

(٤) المجلد الاول ص ١٤ "Lammens, "La Syrie

(٥) الأب شيخو : "خزائن الكتب في دمشق وضواحيها" في المشرق سنة ١٩٠٢ ص ١٠٤ — ١٠٦

وهي تثبت شيوع الارامية السريانية قبل اليونانية في الكنيسة الارثوذكسية السورية · وانىا نشك" بصحة ما روتهُ السيكلو بيديا الكاثوليكية [١] في ان اللغة اليونانية كانت اللغة السائدة في دير مار مارون [على العاصي] حتى القرن التاسع »

قُبيل سنة ١٠٠٠ ق · م اقتبس الاراميون احرف الهجاء من انسبائهم الفينيقيين ، والحبر والورق من المصريين ، ونشروها بواسطة تجارهم من الهند شرقًا الى اطراف آسيا غربًا · فالارامية هي اول لغة مهمة كتبت باحرف هجاء ، وعنها لا عن الفينيقية راسًا نقل الهنود والفرس والعرب وغيرهم حروفهم · واقدم كتابة آرامية وُجدت للآن هي لملك من ملوك حماه اسمهُ زاكر ، كتبها في القرن الثامن قبل المسيح ، وكتابات غيرها وجدت في سنجرلي عَلَى اطراف سوريا الشمالية يرتقي عهدها للقرن الثامن ايضًا

ولما صار الامر للفرس بعد الاشوريين والبابليين بقيت السيطرة للغة الارامية في ولايات اسيا الصغرى ، وكان حكام تلك الولايات ينقشون عَلَى نقودهم باللغة الارامية · ولقد وُجد في مصر كتابات بالارامية [٢] على إحداها تاريخ هو السنة الرابعة من ملك زركسيس (٤٨٢ ق · م) ، وغيرها كثير مما كتبهُ المستعمرون اليهود في الاطراف الجنوبية من بلاد الصعيد · فملوك مادي وفارس كانوا يحررون رسائلهم بالارامية ، وهو الامر الذي جرى عليه الملوك الساسانيون بعدهم

ومن اسفار العهد القديم جزء من دانيال وعزرا ونحميا مكتوب بالاصل باللغة الارامية ومع ان الانباط والتدمريين كانوا من سلالة عربية وكانت اللغة العامة بينهم العربية [٣] فان نقوشهم وكتاباتهم جاءت باسرها بالآرامية [٤] ، وما النبطية والتدمرية سوى لهجتين من لهجات الارامية · ونقوش تدمر يرجع معظمها للقرون الثلاثة الاولى بعد المسيح ، اما نقوش النبطيين الذين بسطوا سلطتهم من اقاصي جزيرة سيناء الى ضواحي دمشق فانها كتبت بالاكثر في القرن الاول بعد المسيح ، وذلك لان الامبراطور طراجان اخضع بلادهم

---

(١) "Catholic Cyclopaedia," Maronites,

(٢) Sayce, "Assuan Papyri" و Sachau, "Aramaische Papyrus"

(٣) Quatremére, "Nabatéens" ص ١٣٧

(٤) Lidzbarski, "Nordsemitische Epigraphik"

سنة ١٠٥ ب٠م وبذلك سقطت دولتهم ٠ ومما يؤكد ان العربية ، كانت اللغة المحكية وجود كلمات عربية مدسوسة بين الالفاظ الارامية كلفظة « غير » التي ، علَى ما يظهر ، لم يعرف الكاتب النبطي ما يرادفها بالارامية فابقاها على اصلها العربي

والعرب الذين كانوا يخالطون العالَم المتمدّن بالسياسة والتجارة اضطرّوا الى معرفة لغة رجال الدول واهل الوجاهة فتعلّموا اللغة الارامية وكتبوها بالقلم الارامي لسهولته ٠وفي قرون النصرانية الاولى امتدّت اللغة الارامية الى شمالي جزيرة العرب كما تشهد بذلك الكتابات المتفرّقة التي وُجدت في تلك الانحاء ٠ حتى ان المسعودي [١] يصرّح بعد ذكره اقسام بلاد العرب « ان هذه الجزيرة كلها ٠٠٠ لسانها واحد سرياني»٠ وكان يعقوب السروجي (٤٥٢ — ٥٢٢ ب٠م) يكاتب عرب نجران المسيحيين في شرقي بلاد العرب باللغة السريانية [٢]

ولقد عثر احدهم في سيان فُو من اعمال الصين على حجر ضخم منقوش عليه بالارامية اسماء سبعة وسبعين مبشراً نسطورياً ذهبوا الى الصين في اواخر القرن التاسع ودُوّنت اسماؤهم في ذلك العهد [٣]

ومجمل القول ان الاثار الكتابية للغة الآرامية هي منتشرة من اقاصي الصين شرقاً الى ضفاف الدردنيل غرباً ومن شواطئ البحر الاسود شمالاً الى اطراف الهند وجنادل النيل جنوباً ، وهو شأوٌ لم تبلغهُ لغة اخرى من اللغات القديمة [٤] ، وربما لم يكن بين اللغات الحديثة مايضاهيها بهِ سوى اللغة الانكليزية ٠ ولا نبالغ اذا قلنا ان اللغة الآرامية تسلّطت على الفكر الساميّ مدة تزيد عن الالف سنة ، ابتداؤها من قبل المسيح بخمسة قرون ، وان العقل الساميّ وجد في الآراميّة اثناء تلك المدة افضل واسطة للتعبير عن شواعره وفواعله

وساطة الارامية بين اليونانية والعربية : على ان الإرسالية التاريخية التي قامت بها اللغة الآرامية هي انها جاءت حلْقة ُالاتّصال بين العقل اليوناني والعقل الساميّ ، والجسر

---

(١) « كتاب التنبيه والإشراف » ص ٧٩ ولامنس : « آثار لبنان » في المشرق سنة ١٩٠٣ ص ٧٠٦

(٢) "Cyclopaedia of Islam," Arabia, Arabic Writing

(٣) تجد الرسم وترجمة الكتابة في ص ٦٩ Yohannan, "Death of a Nation"

(٤) للمقابلة بين انتشار اليونانية والآرامية راجع ص ٢٩١ Renan, "Langues Sémitiques"

الذي اجتازته الفلسفة والعلوم اليونانية قبل دخولها الى حظيرة العربية والعبرانية ٠ فارسطوطاليس مثلاً ابو الفلاسفة واوحدهم ترجمت مؤلفاته اوّلاً الى السريانية ومنها (في ايام المأمون) الى العربية ، وبواسطة ابن رُشد القرْطبي (المتوفىّ سنة ١١٩٨) وجد ارسطوطاليس في الاجيال الوسطى الى جامعات اوربا سبيلاً ٠ واصبح شرح ابن رُشد لهُ الشرح المعوّل عليه في العالَم الغربي ٠ وذلك كان نصيب غير ارسطوطاليس من الجغرافيين والرياضيين والاطباء اليونان

ولماّ اقبل العرب على العلوم وارادوا الاشتغال بها في خلال نهضة القرن الثامن والتاسع كان علماء السريان هم الذين اعانوهم علَى ذلك ، واستخرجوا لهم المصنفات اليونانية والسريانية وساعدوهم على ترجمتها الى العربية ٠ فالسريان اذن (و بلفظة اخرى « السور يون» الاقدمون) هم الذين نقلوا مصباح العلم والتمدن من ايدٍ يونانية الى ايدٍ عربية ، والعرب هم الذين اناروا عقول بني اوربا يوم كانت اوربا في ظلام مدلهمّ

واقدم أثر سرياني ذي شأن هو ترجمة التوراة المعروفة « بالبسيطة » في القرن الثاني بعد المسيح في مدينة أدَسَّا (التي يسميها العرب الرُّها والاتراك اورفا) وهي اول ترجمة للتوراة عن لغاتها الاصلية

ومن المترجمين من اليونانية الى السريانية سرجيس الرشعيني (المنسوب الى رشعين = رأس العين في العراق) الذي ترجم بعض كتب جالينوس وكان حُنين بن اسحق شيخ المترجمين يصحّح نقلهُ ٠ ثم نقل هذه الكتب في الاسلام موسى بن خالد[1] ٠ ومنهم جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس اطبّاء مدرسة ومارستان جنديسابور ، وطبيب الخليفة المنصور[2] ، الذي نقل من اليونانية الى العربية كتباً طبيّة وألّف في الطب بالسريانية ٠ فالكتب التي اعتمد عليها الرازي (المتوفّى نحو سنة ٩٣٠) في كتابهِ الطبي المسمّى "الكتاب الملوكي"، وابن سينا (المتوفىّ نحو سنة ١٠٣٧) في تأليفه «القانون» كانت بالاصل كتباً يونانية لابقراط وجالينوس ، ولكنها كانت قد ترجمت قبلاً الى السريانية

ومن اشهر نَقَلة العلم في العصر العباسيّ آل حنين من نصارى الحيرة واهمهم حنين

---

(١) ابن ابي أُصيبعة : « طبقات الاطباء » مجلد ١ ص ١٨٩ (٢) « طبقات الاطباء » مجلد ١ ص ١٢٣

بن اسحق [١] ، وآل بَختيشوع ، وقسطا بن لوقا البعلبكي من نصارى الشام · وكان قسطا طبيباً متقناً اللغات اليونانية والسريانية والعربية [٢]

ومما يستحق الاعتبار ان الالفاظ الاصطلاحية العلمية التي دخلت من اليونانية الى العربية «جغرافيا» و«سفسطه» و«دوسنطريا» و«اقليم» و«أثير» انما دخلت عن طريق السريانية لا عن اليونانية رأساً · ومتكلمو العربيَّة لم يزالوا للآن يلفظونها كما يلفظها السريان لا اليونان · ومن اسماء الاعلام المعرَّبة التي يلفظها العرب كما يلفظها السريان لا اليونان إفلاطون ، بدلاً من بلاتون ، وسقراطيس ، بدلاً من سكراتيس ، ويوحنا بدلاً من يونّيس

السريانية: بعد ان اعتنق الآراميون الديانة المسيحية مالوا الى التلبُّس باسم «السريان» ، وهو الاسم الذي اطلقهُ عليهم اليونانيون ، واستنكفوا من استعمال لفظة «آراميون» لِما علق في الاذهان من رائحة الوثنية القديمة في تلك اللفظة · وفي اواخر القرن الخامس انتشرت بين السريان المسيحيين تعاليم نسطور · وكانت يومئذ تتقاسمهم سلطتان ، السلطة الرومانية والسلطة الفارسية ، فاعتنق معظم السريان الشرقيين الخاضعين لدولة فارس العقيدة النسطورية ، وانضم السريان الغربيون الخاضعون للقسطنطينية الى مذهب اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة · وفي سنة ٤٨٩ سدَّت مدرسة أَدسَّا ابوابها في وجه النساطرة فأسَّسوا مدرسة خاصة لهم في نصيبين وبذلك انشطر الآراميُّون الى شطرين واخذت نصيبين بمنافسة جارتها أَدسَّا التي كانت لذلك العهد المركز العلمي الادبي الاول في العالم السامي · وبعد ان كان الفرق بين الفريقَين دينيًّا فقط اصبح بتوالي الاعوام لغوياً ايضاً ، فأُطلق اسم «السريانية» على لهجة أَدسَّا وسوريا و«الكلدانية» على الفرع الشرقي النسطوري [٣] · على انَّ الفرق بين اللهجتين سطحي لا جوهري ، وهو مقتصر على كيفية لفظ بعض الأَحرف والحركات وعلى شكل الخط · فالكلدانية هي لغة النساطرة والفرع

---

(١) «طبقات الاطباء» مجلد ١ ص ١٨٤ (٢) من شاء الزيادة فليطلب ابن النديم: «الفهرست» ص ٢٤٤ — ٣٠٣ وجرجي زيدان: «تاريخ التمدن الاسلامي» جزء ٣ ص ١٤٣ — ١٤٨

(٣) المقدّمة Nöldeke, «Syriac Grammar» trans. Crichton

الشرقي من الآرامية ، والسريانية هي لغة اليعاقبة والفرع الغربي منها . غير انا جرينا في مقالنا هذا على استعمال السريانية والآرامية مترادفين

وفي القرن السابع للمسيح — وهو القرن الذي شرع فيه العرب بفتوحاتهم — تنعّمت الآرامية السريانية بعصرها الذهبي وزهت فيها العلوم والفنون . كان ذلك بفضل الذين نبغوا في هاتين المدرستين — مدرسة أدسّا ومدرسة نصيبين — ومن اشهرهم المؤرخ الفيلسوف يعقوب الرهاوي [1] واضع علم النحو السرياني

والحقيقة التي نريد تقريرها من هذا البحث ان اللغة الآرامية السريانية لدى الفتح الاسلامي هي التي كانت سائدة متغلِّبة على ألسنة ابناء العراق وسوريا وفلسطين، لا ينازعها في ذلك منازع ، ولا يعارضها معارض ، وكانت قد سبقت فتغلّبت عَلَى اللهجات السامية السالفة كالعبرانية والفينيقية والامورية ، وهي اللغة التي نازعتها اللغة العربية نزاعاً شديداً الى ان اقتلعتها وتأصّلت مكانها ، وذلك بعد حرب عوان دامت اجيالاً وقروناً

أللُّغة العَرَبيَّة

اللغة العربية من أحدث اللُّغات السَامية عهداً ، واصغرهنّ سنّاً [2] ، ولكنها من اشدّهن محافظة على القديم وتشبُّثاً بالاصول ، ومن اقواهنّ عصبيَّةً وحيويَّةً . فهي بنت البارح باعتبار قِدَم الاشورية والعبرانية والآرامية . ولكنّ اهميتها قائمة بغير ذلك [3] . اهمية العربية قائمة أوّلاً بمحافظتها على الاصول السامية القديمة من مثل علامات الاعراب، والحركات، والتنوين ، وأل التعريف ، وبعض أوزان الافعال ، الى غير ذلك مما فقد معظمهُ من سائر اللغات السامية أخوات العربية ولم يبقَ منهُ سوى آثار تصعب معرفة إرجاعها الى أُصولها لولا العربية . وثانياً بشدة حَيَوِيّتها وقوّة عزمها وكثرة عصبيّتها التي بفضلها تمكَّنت من الغلبة على السريانية واليونانية والفارسية والقبطية وغيرها بحيث اصبحت لغة سكان آسيا الغربية وافريقية الشمالية من جبال طورس شمالاً الى باب المندب جنوباً،

---

(١) السمعاني : « المكتبة الشرقية » مجلد ١ ص ٤٦٨

(٢) يعتبر الاستاذ ضومط اللغة العربية "الاخت الكبرى للعبرانية والآرامية ان لم تكن أُمّهما" الهلال عدد ايار سنة ١٩٢١ !

(٣) والذي نعنيهِ بالعربية هنا لغة الحجاز والاسلام لا سبأ وحمير

ومن خليج فارس شرقاً الى الاتلانتيكي غرباً. فهي اليوم اللغة اليومية لقوم لا يقلُّ عددهم عن خمسين مليون نفس. وهي اللغة الدينية المقدَّسة للعالم الاسلامي باسرهِ وعددهُ يناهز المئتين والخمسين مليوناً. والدلائل كلها تشير الى انَّ العربية ستحافظ على كيانها اجيالاً طوالاً، وستدوم ما دام الاسلام

ومن ميزات العربية التي تفوق بها سائر اللغات غناها اللفظي، وكثرة مرادفاتها، ومقدرتها عَلى تصوير شعائر النفس والتعبير عن الخياليات فهي في ذلك لا تُجارى ولا تُبارى

الاحرف العربية : ذكرنا آنفاً انَّ من افضال الآرامية عَلى العربية انها كانت الوسيطة بينها وبين العلوم اليونانية من فلسفة وطبّ ورياضيَّات. ونزيد الآن ان العربية مدينة للآرامية بخطها. فالاحرف العربية مأخوذة عن الاحرف الآرامية السريانية، والخطّ الآراميّ هو شقيق الخط الفينيقي — اول خط كُتبت بهِ احرف الهجاء. وعن الخطّ الآراميّ (لا الفينيقي رأساً) نُقل الخطّ السنسكريتي والهندي والعربي

اول كاتب عربي أشار الى اصل الخط العربي انما هو البلاذري المتوفّى سنة ٨٩٢ ب. م. فالبلاذري [١] يذكر استناداً على رواية والد هشام الكلبي (هشام توفي سنة ٨١٩ او ٨٢٠ عَلى قول ابن خلّكان) ان دخول الخط العربي كان من الحيرة والأنبار. وانَّ العرب "وضعوا الخطّ وقاسوا هجاءَ العربية عَلى هجاءِ السريانية". ولقد أُتبع البلاذريَّ في رأيهِ هذا ابنُ خلدون في مقدمته الفصل الثلاثين وابنُ خلّكان في سيرة ابن البوّاب

اما ابن النديم [٢] فانهُ يروي عن هشام الكلبي ان اوّل من وضع الخط العربي "ابوجاد وهواز وحاطي" الخ. . . وهولاء ملوك مَدْيَن". فاذا اهملنا الالف من هاته الالفاظ يبقى معنا احرف الهجاء على ترتيبها الاصلي الآرامي والفينيقي. اما مَدْيَن فهي بلاد الانباط. وعليهِ ففي رواية ابن النديم تذكار او صدىً من حقيقة تاريخية وهي ان احرف الهجاء العربية مأخوذة عن الآرامية وبالاخص عن اللهجة النبطية. والذي يقول بهِ العلماء الحديثون ان الخط الكوفي مأخوذ عن الاسطرنجيلي، والخط النسخي عن النبطي، وكلا الاسطرنجيلي والنبطي قلم سرياني

الكتابات العربية : اقدم أثر بالعربية عثر عليهِ العلماء للآن هو كتابة وُجدت في زَبَد

(١) "فتوح البلدان" طبعة ليدن صفحة ٤٧١

(٢) "الفهرست" طبعة ليبسك ص ٤. قابل القلقشندي: "صبح الاعشى" جزء ٣ ص ١٣

للجنوب الشرقي من حلب وأخرى في حَرَّان جنوبي دمشق من اعمال اللجا في حوران، الأُولى مثلثة اللغات — عربية وسريانية و يونانية — يرتقي عهدها لسنة ٥١٢ ب٠م ، والثانية بالعربية واليونانية تاريخها ٥٦٨ ب٠م [١] ٠ وعليهِ فتكون أقدم كتابة يمكن ان نتميَّزها تماماً ونتبيَّنها بانها عربية بحتة لم تُكتب قبل ولادة نبي الاسلام باكثر من نصف قرن و بعض عقد منهُ

اما الكتابات الثمودية اللحيانية [٢] التي اكتُشفت في شمالي الحجاز ونجد والكتابات الصَفَوِيَّة (المنسوبة لتلول الصَّفاء الى الشرق الجنوبي من دمشق) فتاريخها يرتقي للقرون الاولى بعد المسيح [٣] ولكننا بالجهد يجوز لنا ان نعتبرها عربية ٠ وهي تُعرَف في اصطلاح علماء المشرقيات بِـ Pro-Arabic اي الكتابات السابقة للعربية

القضاء على اليونانية : بعد دحر عساكر البيزنطيّين في واقعة اليرموك سنة ٦٣٦ ب٠م استولى العرب المسلمون على سوريا بما فيها فلسطين ولبنان ، فوجدوا اليونانية اللغة الرسمية للبلاد فتركوها على حالها٠ و بقيت اللغة اليونانية لغة الدواوين في كل عهد الخلفاء الراشدين وفي بداءة العهد الأُموي حتى أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٥—٧٠٥)٠ وهاك نصُّ البلاذري [٤] في هذا الصدد : "ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبد الملك بن مروان ٠ فلما كانت سنة ٨١ امر بنقلهِ ٠ ٠ ٠ وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ٠ فسألهُ أن يعينهُ بخراج الأُردنّ سنةً ، ففعل ذلك وولاَّهُ الأُردن٠ فلم تنقضِ السنة حتى فرغ من نقلهِ وأَتى بهِ عبد الملك فدعا بسرجون كاتبهِ ، فعرض ذلك عليهِ ، فغمَّهُ وخرج من عندهِ كئيباً٠ فلقيهُ قوم من كتّاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم"

و بحسب روايةِ ابي الفرَج ابن العبْريّ فالوليد بن عبدالملك (٧٠٥—٧١٥) هو الذي أبدل اليونانية بالعربية في سجلّات الحكومة٠ فان ابن العبري ذكر في تاريخهِ [٥] تحت عنوان الوليد بن عبد الملك "ومنع كتاب النصارى من ان يكتبوا الدفاتر بالرومية ، لكن بالعربية " ٠والذي يلوح لنا من باب التوفيق بين الروايتين ان عَملية النقل، وهي مما لا يتمُّ

---

(١) "Cyclopaedia of Islam", Arabic, Arabic Writing

(٢) أُطلق عليها لقب لحيانية لورود اسم قبيلة لحيان مكرَّراً فيها

(٣) "Cyclopaedia Britannica", Semitic Languages, Arabic

(٤) "فتوح البلدان" ص ١٩٣ (٥) «مختصر الدول» ص ١٩٥

دفعةً واحدة بل يقتضي له الوقت الطويل، شرع بها عبد الملك وانجزها ابنهُ الوليد. والذي يهمنا ان نتذكَّرهُ من كل ذلك ان العربية لم تتمكن من القضاء على اليونانية في سوريا حتى اواخر القرن الثامن وأواخر القرن الاوّل بعد الهجرة، والحكومة العربية في دمشق كانت اليونانية لغتها الرسمية حتى ذلك العهد

العراك بين العربية والسريانية: جاء معنا سابقاً ان السريانية كانت لغة ابناء سوريا لدى الفتح الاسلامي. ولا شك ان بعض ابناء المدن والسواحل كان يتكلم اليونانية، وبعض سكَّان الضواحي الشرقية والجنوبية من البلاد المتاخمة للصحراء والبلاد العربية كانت تتكلم اللغة العربية، ومن هولاء بنو غسَّان الذين اقامهم الروم عمَّالاً على مشارف الشام. ولكن معظم الاهلين و بالأخص اللبنانيين كانوا ينطقون بالسريانية. وهذه دافعت عن كيانها دفاعاً مجيداً وناضلت عن موقفها نضالاً طويلاً، ولكنها اخيراً غُلبت عَلَى امرها وقامت شقيقتها الصغرى مقامها

الناس في كل عصر ومكان، عَلَى ما يظهر، يهون عليهم ان يبدلوا صبغتهم السياسية اكثر من ان يبدلوا صبغتهم اللغوية، وان يغيّروا دولتهم قبل ان يغيروا لغتهم. فغلبة السيف العربي على سوريا كانت اسرع وأهون من غلبة اللسان العربي عليها. هذه تمَّت في خلال ثلاث سنوات، وتلك استغرقت اجيالاً وقروناً

والذي يلوح لنا ان البلاد السورية بقيت سريانية بلغتها ودينها وقوميتها في كل العصر الراشدي ومعظم العصر الامويّ، وانها لم تستعرب الاّ تدريجاً في اواخر الدولة الاموية ولم يتمّ تعريبها و إسلامها حتى العصر العباسي

ومما يستحق الاعتبار ان غلبة العرب المسلمين عَلَى بلاد فارس والاندلس لم يكن من نتائجها إحلال العربية محل الفارسية في الواحدة والغوثية في الاخرى، بخلاف غلبة سوريا حيث العربية اقتلعت السريانية تماماً. وما ذلك الاّ لأنَّ العربية والسريانية شقيقتان فالانتقال من الواحدة الى الاخرى هيّن نوعاً. وابناء البلاد السورية كابناء البلاد العربية ساميون لهم عقلية واحدة

الانتقال التدريجي: قلنا انهُ بظهور الاسلام واستيلاء العرب على سواحل الشام والداخلية اخذت العربية تنتشر شيئاً فشيئاً في انحاء سوريا ولبنان وفلسطين وما زالت في نموّ وانتشار حتى غلبت شقيقتها الكبرى السريانية، لكنَّ هذه لم تتوارَ بالتمام الاّ تدريجاً. وعليهِ فيصعب

تعيين وقت محدود يجوز اعتباره الحدّ الفاصل بين اللغتين . الاّ انهُ يجوز القول ان فوز السريانية في المدن والسواحل تمّ في خلال القرن العاشر والحادي عشر ، وفي الداخلية بعد ذلك بقرنين ، اما في لبنان فتأخّر حتى اواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر .

ولما كانت الغلبة تدريجية بطيئة كان يهون علينا ، من ملاحظات المؤرخين وشهادات السياح ، تتبُّع الخطوات التي سارت عليها سنة التغيير من الحالة الاولى التي كانت فيها السريانية سائدة ، الى الثانية التي كانت فيها العربية تقاسمها السيادة وتشاطرها السلطان ، الى الثالثة التي اصبحت فيها العربية هي المتغلّبة الفائزة

فالمصنّفون والكتّاب في اللغة السريانية في سوريا من القرن السادس فصاعداً هم كثيرون ، منهم يوحنا بن أفتون القِنِسريني وزكريا الملطي وثاوفيل الرّهاوي ويوحنا أُسقف بُصرى في حوران . واولّ كاتب اكليريكي كتب بالعربية في سوريا لم يظهر حتى القرن التاسع في شخص ثاودورس ابي قرَّه

وفي اوائل القرن الحادي عشر نرى صموئيل بن حُفني اليهودي رئيس مدرسة سورا[1] يحضّ اليهود عَلَى المحافظة على لغتهم العبرانية وتعزيزها وعلى اتخاذ السوريين مثالاً « فانهم قط لم يهملوا لغتهم بل ما زالوا متمسكين بها »[2] . وربما كان صموئيل هذا مدفوعاً بعامل الغيرة على لغته اكثر من عامل تقرير الحقائق لاننا نرى في بداءة القرن نفسهُ كاتباً كايلياس بارشنّايا اسقف نصيبين يضع تآليفهُ المقصود منها المسيحيين بكلتا اللغتين السريانية والعربية في عمودين متوازيين[3] . وجرى على ذلك كثيرون غيره فيما بعد ذلك وفي مقدمتهم ابن العبري (١٢٢٦ — ١٢٨٦) المحسوب من اكبر العلماء الذين انجبتهم سوريا في كل تاريخها وامير الكتبة اليعاقبة عَلَى ما سماه السمعاني . فابن العبري هذا وضع تاريخه المشهور بالسريانية اولاً ثم نقله للعربية وهو الموسوم « مختصر الدول »[4] . وعندئذٍ اخذت المعاجم السريانية العربية بالظهور مما يدلُّ على اقبال القوم عَلَى اقتباس اللغتين . ويظهر من عبارة

---

(١) في بابل . راجع "Jewish Cyclopaedia," Babylonia

(٢) الطبعة الرابعة ص ٢٦٧ نقلاً عن Renan, "Histoire des Langues Sémitiques" ص ١٦٧ Munk, «Notice sur Aboulwalid Mervan Ibn Djânah»

(٣) "Cyclopaeida Britannica," Semitic Languages, Syriac (٤) راجع ترجمة المؤلف التي وضعها الصالحاني في مقدّمة هذا التاريخ

واردة في تاريخ ابن العبري [١] وهي قوله ان اللهجة الفلسطينية السريانية هي « لغة اهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة » ان المؤلف كان يعتبر السريانية في عصره ، وهو القرن الثالث عشر ، لغة بلاد الشام . اما جاك ده ڤتري [٢] وبروكارد [٣] فيلوح لنا من عبارات في كتاباتهما انهما يعتبران العربية في القرن الثالث عشر لغة الطوائف المسيحية في سوريا ويصرحان بان معظم المسيحيين كان يكتب العربية باحرف سريانية

وبعد ان مالت مدرسة قنسرين في شمالي سوريا الى التقهقر والانحطاط لم تلقَ العربية من مقاومة عنيفة لا سيما وان السريانية لم يكن من ورائها يومئذ دولة تدعمها ولا وحدة سياسية تؤيدها حتى ولا وحدة دينية تعضدها ، لان انتشار البدع « الهرطقات » بين السوريين السريان مزّقهم طوائف واحزاباً . عندئذ اخذت الاساليب العربية من امثال مقامات الحريري تستهوي عقول ابناء سوريا بسجعها وسحر بيانها ، واخذ الكتبة يتناظرون فيما اذا كانت السريانية تفضل العربية او العربية السريانية . وهذا ما حمل عبد يشوع الصوباوي مطران نصيبين (المتوفى سنة ١٣١٨) واكبر عالم سرياني في عصره على ان ينظم قصيدتهُ السريانية « فرديسا دَعْدِنْ » ويحذو فيها حذو شعراء العرب في الجناس والتوشيح ولزوم ما لا يلزم وغير ذلك من فنون بديعهم اللفظي . والسبب في ذلك ما حكاهُ بنفسهِ " ان يُري العرب غنى السريانية ، وكانوا يزعمون انها لغة فقيرة قاصرة عن التعبير عن المقاصد الشعرية . وان ما في كتبهم ولا سيما مقامات الحريري من الفنون البديعة لا يتعذر على السريان الاتيان بمثلهِ " [٤]

ولقد ذكر عمرو بن متّى العالم النسطوري الذي اشتهر سنة ١٣٤٠ عن عبد يشوع هذا انهُ كتب رسالة عربية في التثليث والتوحيد والتجسّد [٥] . وعمرو بن متّى نفسهُ الّف كتاباً عربيّاً سمّاهُ المجدل (البرج) ذكر فيه سلسلة البطاركة النسطوريين . والسمعاني يذكر

(١) "مختصر الدول" ص ١٨

(٢) أسقف عكا كتب تاريخه سنة ١٢١٨ "Jacques de Vitry, "Historia Hiersolymæ

(٣) Brocard في "Bongars, "Gesta Dei per Francos نقلاً عن Renan, "Langues Sémitiques" ص ٢٦٧ سنة ١٨٨٩

(٤) راجع المقدمة التي وضعها القس جبرائيل القرداحي لديوان عبد يشوع الصوباوي طبعة اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٨٩ (٥) الدبس : "تاريخ سوريا" مجلد ٦ ص ٤٥٣

في ترجمة نوح البقوفاوي انهُ وُلد سنة ١٤٥١ في بقوفا (بين اهدن وبشرّي وهي اليوم خراب) وكان اسقفاً على حمص . وفي سنة ١٤٩٤ سيم بطريركاً على اليعاقبة ومن تآليفه كتاب قصائد بالسريانية وثلاث مقالات بالعربية ينسبها السمعاني لهُ

وفي اوائل القرن الرابع عشر (سنة ١٣٢٢) زار مانذفيل [١] الاراضي المقدسة ويؤخذ من عبارة واردة في وصف سياحاته [٢] انهُ وجد السوريين يتكلمون العربية ، والمقصود بالسوريين هنا ولا شك سكان المدن والسواحل . وهاك عبارته بحرفها : "There be others that be clept Syrians ... and in their language they use letters of Saracens."

فيصح لنا بالاجمال ان نقول انهُ في اوائل القرن الرابع عشر كانت العربية قد خنقت السريانية في المدن والسهول

التنازع والجهاد في لبنان : اما في لبنان فان الجبل بالنسبة لوعورة مسالكهِ ، وانفرادهِ ، ولصعوبة مواصلاتهِ ، ولكون ابنائهِ لم ينطقوا بغير السريانية — بخلاف ابناء المدن الذين تكلَّموا بها وباليونانية — ولم يعتنقوا الاسلامية بل حافظوا على معتقدهم وعلى نوع من الحكم الذاتي والاستقلال القومي في اثناء سيادة الدول الاسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة ، تمسَّك بالسريانية بكل قواهُ واستمرَّت تلك اللغة في شماليه الى أمد حديث ، حتى بعد ان عمَّت العربية المدن والسهول واكتنفت الجبل من كل جهاتهِ بقي القسم الشمالي منهُ يتكلم السريانية كأنما هو جزيرة في بحر او واحة في صحراء

وبداعي حلول قبائل عربية — كَمَعْن وتنوخ وشهاب — في لبنان الجنوبي في ايام الصليبيين والمماليك عمَّت العربية تلك الجهات في اواسط القرون الوسطى . اما في شماليهِ كما في بشرّي وحصرون وبزعون فالسريانية استمرَّت لغة الاهلين اليومية حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر . والسريانية لم تزل ليومنا هذا اللغة الدينية للموارنة يكتبون بها طقوسهم وصلواتهم ، حتى اذا عمدوا الى العربية فانهم يكتبونها باحرف سريانية ، وهو ما يسمُّونهُ الكرشوني [٣]

(١) وربما كان هذا الاسم مستعاراً او موضوعاً ولكنَّ السياحات لا شك قام بها احدهم وربما اكثر من واحد

(٢) "Travels of Sir John Mandeville", Macmillan, 1900

(٣) اشتقاق هذه اللفظة مجهول . ويظن بعضهم انهُ يرجع الى « كرشُونا » وبالعربية « الكرش » للدلالة على الشيء الباطني المخبأ

ومَن يراجع تواريخ الطائفة المارونية يرى شيئاً كثيراً من الاشارات الى شيوع السريانية واستعمالها بين ظهرانيهم في الاجيال الوسطى واوائل الاجيال الحديثة. فالدويهي[1] يذكر تحت احداث سنة ١٣٦٦ اسم رجل يقال لهُ يعقوب كان من جملة الاساقفة الذين قبض عليهم نائب السلطنة بدمشق ثم فرّ واستتر وكتب في استتاره «الانجيل بالسرياني والكرشوني» . وهذا الانجيل كان باقياً الى ايام الدويهي في دير قنوبين

ولم يزل للآن كتابات سريانية على كثير من الاديار ومنها دير السيّدة بميفوق وهو الرابع من ادبار الموارنة من حيث القِدم . في هذا الدير نقش بالسريانية مُنبئٌ بتجديد الدير ومشير الى بنائهِ القديم وتعريبهُ «بسم الله الحي الدائم . في سنة ١٧٤٦ جدّد بناء هذا الهيكل اخوان كاهنان أمون وميننع . وكان قد انشأهُ اربعة بطاركة بطرس وإرميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١»[2]

وفي منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٠) أُلحق الاخ فراغريفون[3] الفلمنكي بالرسالة الفرنسيسكانية في جبل لبنان واقتضاهُ الامر ان يدرس اللغة السريانية فتضلّع منها ومن غيرها من اللغات الشرقية وبقي نحو ربعٍ قرن في لبنان معلماً ومبشراً

ومن الكتبة المارونيين الذي يهمنا في هذا البحث امرهم المطران جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي . فان هذا الرجل ولد في لحفد من اعمال لبنان في اواسط القرن الخامس عشر وتوفي اسقفاً عَلَى قبرس سنة ١٥١٦ . ومن آثارهِ قصائد كثيرة لغتها ركيكة وعليها مسحة اللهجة السريانية وبينها وبين لغة القران بون شاسع . ولقد روى الدويهي ان جبرائيل كتب ٤٦٥ مقالة أو «ميمراً» واورد منها مقاطيع[4] هي اشبه بالازجال منها بالقصائد

ومما يدل عَلَى استمرار السريانية في لبنان الشمالي حتى القرن السابع عشر ما ذكرهُ

---

(١) «تاريخ الطائفة المارونية» ص ١٢٩ (٢) الدبس : «تاريخ سوريا» مجلد ٦ ص ١٩٨ . قابل الدويهي ص ١١٣—١١٤ (٣) لامنس : «الاخ فراغريفون ولبنان» في المشرق سنة ١٨٩٨ ص ١٥ (٤) الدويهي ص ٣٣٩ و٣٥٤ و٣٦٨ الخ

جرجس الكرمسدّيني (نسبةً الى كرم سدّه) الماروني الذي وضع قاموساً سريانياً عربيّاً سنة ١٦١١ وقال في مقدمتهِ انهُ استعان على جمع الالفاظ السريانية بأهل البلاد المجاورة واخصُّها حصرون

وفي سنة ١٦٣٢ زار شاتايل [1] سوريا فوجد اهل حصرون (Asron) لم يزالوا يتكلمون اللغة السريانية · والغريب ان حصرون حافظت على سريانيتها بعد ان كانت اهدن بجوارها قد فقدتها · يدلُّنا على ذلك ان جبرائيل الصهيوني العالم الشهير ، ترجمان لويس الثالث عشر وأحد مترجمي التوراة المتعددة اللغات (Polyglot) كان دائماً ينظر الى العربية كلغته الوطنية · وجبرائيل هذا وُلد في اهدن سنة ١٥٧٧

و بعد رحلة شاتايل ببضع سنوات زار الاب يوجين روجر [2] البلاد المقدسة وذكر في عرض وصف رحلتهِ « ان لغة الموارنة هي العربية · ولكن السريانية لم تزل اللغة الشائعة في ثلاث قرى بجوار الارز »

ومما ذكرهُ ستوكوف [3] الذي ساح في البلاد في اواسط القرن السابع عشر ان الموارنة « يقيمون طقوسهم وقداديسهم باللغة الكلدانية وهي لغتهم الاصلية · ولكنهم بداعي علائقهم مع جيرانهم اصبحت لغتهم فاسدة وأضحى جُلُّهم من متكلمي العربية (Moresque)

وشهد العلاّمة مرهج المعروف بفوسطوس بن نمرون الباني في كتابهِ اللاتيني الموسوم بما تعريبهُ « سلاح الايمان » [4] ان بشرّي وحصرون و بعض القرى المجاورة كان سكانها يتكلمون السريانية في خاتمة القرن السابع عشر

تقرَّر معنا من إشارات المؤرّخين وشهادات السيَّاح المدروجة اعلاهُ ان السريانية كانت لم تزل حيةً في شمالي لبنان في اواخر القرن السابع عشر · فلنتابع التنقيب في الرحلات والمؤلَّفات لنرى ماذا كان شأنها بعد ذلك

اوَّل سائح نعرفهُ مرَّ في سوريا في القرن الثامن عشر هو پوكُك الانكليزي · زار

---

(١) ص ٦٠ M. Marchety, « La Vie de Chasteuil,» Paris 1666

(٢) ص ٤٩٧ F. Eugène Roger, "La Terre Sainte", Paris 1664

(٣) ص ٣٠٥—٣٠٦ Stochove, "Voyage de l'Italie et du Liban", Rouen, 1670

(٤) ص ٨٩ Naironi, "Evoplia fidei Catholicæ," Rome, 1694

بوكك البلاد سنة ١٧٣٧ — ١٧٣٨ وذكر في وصف رحلتهِ[١] « ان رهبان الموارنة يصلون صلوات الليل بالسريانية دون ان يفهموها ، ويكتبون لغتهم الوطنية وهي العربية بأحرف سريانية »

وعقب بوكك الرحالة الدنماركي نيبور الذي يفيدنا انه سمع بوجود بعض قرى في الجبل لم تزل محافظة على سريانيتها . ومما ورد في رحلة نيبور[٢] قوله : « حقًّا ان السائحِ لا يسمع في سوريا وفلسطين سوى العربية محكية ، ولكنه لا يجوز اعتبار السريانية لغةً ميتةً لانني سمعت في دمشق انهُ لم يزل في ولاية باشا تلك الحكومة بعض القرى لا يتكلم ابناؤها سوى السريانية »

اما الكونت ڤلني الافرنسي الذي جال في سوريا ومصر سنة ١٧٨٣ — ١٧٨٥ فانه ينكر على نيبور صحة ما اتصل به بدعوى « انهُ سأَل كثيرين من رجال الدين العارفين باحوال البلاد ولم يذكر لهُ احد شيئاً عن السريانية فيجوز اذاً اعتبارها لغة ميتة[٣] » . وكذلك رينان[٤] ينسب لنيبور « عدم التدقيق » لانه قال بوجود السريانية في بعض قرى لبنان كلغة محكية . فالظاهر ان ڤلني ورينان لم يزورا الاماكن التي عناها بوكك ليتحققا صدق روايتهِ بل اكتفيا بشهادة السماع . على ان ڤلني يسلم باستمرار السريانية في معلولا الى ايامهِ

وفي اواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٢ — ١٧٩٨) زار سوريا سائح انكليزي يدعى براون . واليك فقرة مما ورد في كتابهِ بهذا الشان[٥] : « [بعد ان سرنا من يبرود قاصدين بعلبك] وصلنا الى معرَّة (Mara) وهي بلدة صغيرة الى شمالي الطريق . ومن الامور التي تستحق الاعتبار ان في هذه البلدة وفي معلولا فقط لم تزل السريانية للان لغة حية يتناقلها البنون عن الآباء بدون استعمال الكتب . ولقد لحظت مكاريَين فاذا هما يؤثران التحدُّث بالسريانية على العربية التي يفهمانها والتي تجانس السريانية في وضعيتها »

---

(١) ص ٩٣ Richard Pococke, "A Description of the East," London, 1745

(٢) ص ٨١ Carsten Niebuhr, "Description de l'Arabie," Copenhagen, 1773

(٣) ص ٣٣١—٣٣٢ C.F.Volney, "Voyage en Syrie et en Egypte", Paris, 1860

(٤) ص ٢٨٨ Renan, "Langues Sémitiques"

(٥) W.G. Browne, "Travels in Africa Egypt and Syria," London, 1799
ص ٤٠٥—٤٠٦

وآخر سائح أشار الى وجود السريانية كلغة محكية في لبنان الشمالي هو الرحالة الانكليزي بركهارت الذي زار البلاد سنة ١٨١٠ . وهاك ما ذكره في هذا الصدد [1] : « عَلَى بعد ثلاث ساعات من قنوبين في دير قزحيا الواقع بجوار بلدة اهدن يوجد مطبعة لطبع كتب الصلوات بالسريانية . وهذه اللغة لم يزل عدد كثير من الموارنة يعرفها و يتكلم بها . وفي هذه الجهات معظم القوم يكتبون العربية باحرف سريانية . وفي الكنيسة اكياس معلقة فيها بزور القزّ مكتوب عليها اسماء اصحابها باحرف سريانية و بخطوط مختلفة » .

فاذا صحت رواية بركهارت فتكون السريانية قد حافظت عَلَى كيانها في اعالي لبنان حتى بداية القرن التاسع عشر ، ويكون بعض الشبان المعاصرين لنا في جيلنا الحاضر يعرفون جدّات وجدوداً لهم كانوا يتكلمون بالسريانية

معلولا : على ان السريانية للان لم تُمتْ تماماً . فالى الشمال الشرقي من دمشق لم تزل لليوم ثلاث قرى تتكلم السريانية وهي معلولا و بَخعه وجُبْعَدين . ولقد زرنا الاولى في الاسبوع الفائت فاستلفت انظارنا اوّلاً الحِصن الحريز الذي عشّشت بهِ هذه البلدة في قلب شير عظيم هو ثمة سلسلة من الصخور الشاهقة تكتنف الجبل القائمة عليهِ البلدة كموجة وتكوّن على مسافة اميال سوراً منيعاً لا يمكن عبوره الاّ من ثغرات ثلاث . فادركنا لاول لحظة ان موقع البلدة الجغرافي هو الذي سهّل عليها الاحتفاظ بلغتها وعدم الاختلاط بما يجاورها . تركنا السيّارة في عين التينة ومشينا صُعُداً نحواً من ميلين ، والبلدة قبالتنا . ولدى اقترابنا اليها رأينا امرأتين سائرتين الهوينا وعَلَى راس كلتيهما حزمة كبيرة من الحشيش فخفّفنا السير علنا نلتقط بعض ما كانتا تتكلمان بهِ واذا بهِ السريانية . حييناها بالعربية فجاءنا الجواب بلهجة عربية مضبوطة « نهاركم ابيض » . ولدى البحث معهما ومع غيرهما من ابناء البلدة — الذين احاطوا بنا في ساحة البلدة كالسوار ، نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً — تبيّن ان الاهلين مزدوجي اللغات يتكلمون السريانية فيما بينهم وفي البيوت والعربية مع الغريب ، وهم يتقنون اللسانين . اما الاولاد فمعظمهم لا يفهمون العربية الا الذين منهم يلازمون مدرسة البلدة حيث تُعلَّم العربية فقط ولا مكان في لائحة دروسها للسريانية . وقد سألنا بالعربية ابنة عمرها عشر سنوات عن اسمها فلم تحرِ جواباً واجابت والدتها « مابتعرف

---

(1) John Lewis Burkhardt, "Travels in Syria and the Holy Land," London 1822 ص ٢٢

عربي بنوب » . اما عدد سكان البلدة فيناهز الالف واكثرهم من السريان الكاثوليك و بعضهم مسلمون

ومن المعلوم ان السريانية التي يتكلمها ابناء هاته البلدة مكسَّرة محرَّفة يتخلَّلها كثير من الالفاظ العربية . ولكنها من حيث الاصل هي هي السريانية القديمة التي كان يتكلمها ابناء البلاد قبل الفتح الاسلامي وفيما بعده الى ان تمَّت الغلبة للعربية ، فبقيت كما يبقى الحيوان المتحجّر في صخر على جبل ليذكّر الرائي باصله يوم كان الصخر ترابًا مائعًا في قاع البحار . ومما نؤكدهُ انهُ لا يمضي جيل او جيلان حتى ينطوي خبر السريانية في معلولا وفي البلدتين المجاورتين لها ويصبح نسيًا منسيًا . وسيأتي يوم يسائل فيهِ ابناء معلولا والديهم عما اذا كان صحيحًا ما يسمعونهُ من ان اجدادهم كانوا يتكلمون السريانية . وما في ذلك عجب بل العجب كل العجب في كيف اعتصمت هذه البلدة بلغتها السريانية اجيالاً وقرونًا بعد ان اصبحت العربية لغة البلاد باسرها

آثار السريانيَّة ودواثرها

في اللغة العربية

لغة كالسُّريانيَّة تقدَّمت اللغة العربية في سوريا ولبنان وفلسطين ، واستمرَّت في لبنان أَجيالاً وقروناً بعد أن كانت العربيَّة قد اكتنفتهُ من جميع جهاتهِ ، وحافظت على كيانها في اعاليهِ الشماليَّة حتَّى خاتمة القرن السابع عشر ، لا بدَّ ان تكون قد تركت آثاراً بيِّنة ودواثر عديدة صريحة في اللغة العربية إجمالاً وفي لهجة ابناء لبنان خصوصاً . ذلك هو الواقع تماماً . فمَن درسَ اللغة العربيَّة واللهجة السورية اللبنانية درساً فيلولوجياً لغويًّا يرى مفاعيل السريانيَّة واضحة موفورة . وهو ما نريد تبيانهُ فيما تبقَّى من هذا الدرس

اهمية درس اللهجات : للَّهجات العربيَّة أهمِّيَّة علميَّة لا تُقاس بالعناية القليلة التي يتعهَّدها بها رجال البحث والعلم . فمنذ عهدٍ غير بعيد لم يكن من أحدٍ يعتبر درس اللهجات العاميَّة جديراً باهتمامهِ ، والآن قلَّ من تفرَّغ لدرسها ووقف حياتهُ لمعرفة نسبتها بعضها لبعض وللعربيَّة الفصحى وعلاقتها بغيرها من اللغات الساميَّة وغير السامية التي لامستها وأثَّرت بها . وذلك امر يقتضي العناء الطويل والبحث الدقيق . فمن العربيَّة المحكيَّة لهجة عراقيَّة بادية فيها آثار التركية والفارسية ، ولهجة عربيَّة تختلف باختلاف الامصار في جزيرة العرب ، ولهجة مصرية حاملة دوارس القبطية القديمة ، ولهجة مغربيَّة هي وارثة اللغات البربرية الحاميَّة التي كانت منتشرة في افريقية الشمالية قبل الفتح الاسلامي ، ولهجة سورية تتميَّز بالبقايا السريانية والدواثر الآرامية فيها . واللهجة السورية هذه تختلف باختلاف الاقاليم الشامية ، وفي الاقليم الواحد باختلاف القرى والضياع حتى انك لترى في لبنان لكل بلدة غنَّة ، ولكل قوم « سِبُّولَت »[1] بها يعرفون ويتميَّزون

والذي يجعل لهذه اللهجات اهميَّة خصوصية انها كلها حية نامية تتغيَّر من جيل الى جيل ومنها تتجلَّى عقليَّة العامة وطرُق تفكيرهم . ولا عبرة في الرأي الشائع ان اللهجات

(١) قضاة ١٢ : ٦

العربية مرجعها واحد هو اللغة العربية الفصحى التي زاغت عنها وانها باسرها عبارة عن اللغة الفصحى القديمة ممسوخة محرَّفة. فالحقيقة هي ان بعضها يرجع الى لغات عربية مختلفة في بلاد العرب نفسها. ولقد اتَّصل بي مؤَخراً ان عالمَين المانيين تمكّنا في اثناء الحرب من درس لهجات بلاد الجليل ووضع اطلس لغويّ جغرافي محاولين ارجاع التباين في اللهجات المحكية اليوم للتباين في اصول القبائل العربية التي تحدَّر سكان الجليل منها. ولقد حفظ لنا ياقوت [١] استناداً على الاصمعيّ قصة رجل من العرب دخل عَلَى ملك من ملوك حِمْير وهو على سطح له مشرف فقال له الملك «ثِبْ» فوثبَ وتكسَّر وعنى الملك بقوله «ثبْ» أُقعدْ وهي لغة حِمير. ومن هذه النكتة وغيرها يتبيّن ان بلاد العرب لم يكن فيها لغة عربية واحدة بل لغات متعدّدة

تأثير السريانية في لهجة لبنان: قلنا ان اللهجة الشامية تمتاز عن سائر اللهجات العربية بظهور مفاعيل اللغة السريانية فيها، وبوضوح آثار تلك اللغة، ووفور دواثرها الباقية على السنة العامة في سوريا ولبنان، ولا سيما في اعالي لبنان الشمالي وفي الضواحي الشرقية من دمشق حيث لم يزل عَلَى كلام الاهلين مسحة من اللهجة الارامية السريانية وبقية من مفرداتها. ولقد حاولنا جمع شتات تلك البقايا ولمّ شعث دوارسها — على صعوبة ذلك — ثم تنظيمها وتنسيقها وحصرها في ابواب محدودة — مع ما في ذلك من المشقة والتعقيد. ولم نرَ فيما اطَّلعنا عليه بهذا الشان ما نهتدي بهِ سوى كتاب حديث قيّم وضعهُ مواطننا الخوري ميخائيل فغالي [٢] استاذ العربية في مدرسة بوردو ونال عليه جائزة كبيرة وسنتابع فيما يلي آثار السريانية (١ً) في نحوِ العربية (٢ً) في صرفها (٣ً) في التلفُّظ بكلماتها (٤ً) في المفردات المستعارة

١ً الآثار النحوية

ليست هذه الآثار النحوية بذات الشأن. وسنكتفي بالالماع الى اهمها: —

(١) من القواعد النحوية المعتبرة في اللغة العربية ان الفعل اذا تقدَّم فاعلَهُ لا يطابقهُ

---

(١) "معجم البلدان" مادّة ظَفَار

(٢) Michel Feghali, "Etude sur les Emprunts Syriaques dans les Parlers Arabes du Liban," Paris, 1918

في الجمع بل يبقى على افراده ، بخلاف القاعدة السريانية التي تقضي بالمطابقة من حيث الافراد والجمع وتجيز اسناد الفعل الى فاعلَين مضمر وظاهر معاً . ولما كان الفعل في "الدارج" يطابق الفاعل من حيث الجمع جاز لنا اعتبار ذلك من مفاعيل السريانية .

فيُقال في العاميةِ « إجو الرُّجال » « أُشْتَرُو اخوتك البيت » « علموني المعلمين » . ولقد انتبه النحاة العرب الاقدمون الى هذا التأثير الناتج عن احتكاك العربية بالسريانية في الحيرة واعالي الحجاز ونصوا عليه بقولهم « لغة اكلوني البراغيث »

(٢) في السريانية يتعدّى الفعل المتعدّي إلى مفعولهِ بواسطة حرف الجرّ — اللام . وعليه يُقال في « الدارج » : « شِفتُو للصَّبي » « ضربتُو لخيَّك » « سمعتُو للولد » . وفي هذه الامثلة إضمار قبل ذكر الاسم الواقع مفعولاً — لان الواو في الامثلة هي ضمير الغائب المتقدّم عَلَى المفعول — وهو ايضاً من خصائص السريانية ومما لا تجيزهُ قواعد العربية

(٣) اذا اردنا في العربية رد الفعل الى فاعلهِ « reflexive » ناتي بـِ « نَفْس » مضافة الى الضمير يتقدّمها اللام من حروف الجرّ ، اما في السريانية فبالضمير فقط داخلة عليه اللام . ومن ذلك قول العامة « كلَّك لَقمِه » « عْملَّك شغْلِه » « خُذْلَك كْتَاب »

٢ — التأثير الصرفي

الأثر الذي احدثتهُ السريانية في صيغ الالفاظ ومبناها (morphology) هو اكثر منهُ في نحو اللغة وهو يتناول الاسماء والضمائر والافعال

— ١ — الاسماء والصفات : —

(١) الاسماء والصفات على وزن « فِعِّيل » هي مفتوحة الفاء في « الدارج » طبقاً للاوزان السريانية . ومن امثلة ذلك :

قَدّيس	في الدارج	= قَدّيشا	في السريانية	= قِدّيسٌ	في العربية الفصحى
تَنّين	"	= تَنّينا	"	= تِنّينٌ	"
بَطّيخ	"	= بَطّيخا	"	= بِطّيخٌ	" (وهو دخيل)

(٢) اسم الآلة بالعربية يصاغ على وزن «مِفعَل» . وهو يحرَّف في العاميَّة إلى وزن «مَفْعَل[1]» المطابق للوزن السرياني :

مَلقط في «الدارج» — مَلْقَطًا في السريانية — مِلقط في العربية الفصحى[2]

(٣) تصاغ النسبة في العربية عادةً بإلحاق آخر الكلمة ياءً مشدَّدة، وفي السريانية بالحاق «اني» ومن بقايا ذلك في العربية جسدَانيّ بدلاً من جسديّ، ورُوحانيّ بدلاً من روحيّ

(٤) علامة التصغير في العربية هي ياء ساكنة تزاد بعد ثاني الاسم، وفي السريانية "أونا" في اواخره . ومن ذلك في «الدارج» «طِرْبون» (بمعنى الغصن الطري الصغير) يقابله في العربية الاصلية «طَرَفٌ» (وتصغيره طُرَيف و «كلبون» (الكلب الصغير . وتستعمل احيانًا للعاقل بقصد التحبُّب) ، و «شلفون» بمعنى الشاب الصغير[3]

— ب — التأثير في الضمائر : —

(١) نِحْنا في الدارج = أَنَحْنُا في السريانية = نَحْنُ في العربية الفصحى

(٢) هِنّي . = هِنُّون = هُم

(٣) قلب الميم نون في ضمير المخاطبين والغائبين فيقولون في العامة «أبوكُن» بدلاً من «ابوكم» و «بيتهن» بدلاً من «بيتهم» . وتلك خاصَّة من خواص السريانية وخلَّة لا توجد في عربية العامة الاّ في بلاد الشام وفي النواحي الشمالية من بلاد الجزيرة[4]

— ج — التأثير في صيغ الافعال : —

(١) بداعي تاثير السريانية أُبدل في الدارج وزن «فَوَّل» بـ «فَيَّل» فيقال «قَيَّمَ» و «نَيَّمَ» بدلاً من «قَوَّمَ» و «نَوَّمَ»

(٢) وزن «فَوْعَلَ» ليس من الاوضاع العربية ، ولكنهُ شائع في السريانية . ومنه في الدارج «قَوشَعَ» و «حوْرَكَ» و «قَوْدَمَ» و «دَوْقَرَ» (أوصد الباب) و «فَوْكَر» . والفاكورة هي كلمة سريانية «پاخُورا»

---

(١) Emmanuel Mattsson, "Etudes phonologiques sur le dialecte arabe vulgaire de Beyrouth." ص ٨٩ (٢) Feghali, "Emprunts Syriaques" ص ٨١

(٣) ومن الالفاظ الدارجة على السن العامة في نواحي عكار «بيتون» اي البيت الصغير وفي الكورة «قفصون . قَفَصُونِه» اي القفص الصغير (٤) المطران اقليميس يوسف داود : «اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية» ص ٤٤ من المقدمة

(٣) وزن سَفْعَلَ وشَفْعَلَ[١] من الاوزان الكثيرة الورود في السريانية والنادرة في العربية ومن ذلك « شَنْفَخ » الجرح ، و « شَلْهَب » الطقس

٣ التأثير الصوتي في التلفظ

التأثير الصوتي (Phonetic) على نوعين ، منهُ ما يتناول الحركات وحروف العلّة ومنه ما يتناول الحروف الصحيحة

— ا — الحركات :

(١) حذفها . من خصائص السريانية قلة الحركات فيها . ومن آثار ذلك في العربية الدارجة إسكان الحرف المتحرّك في اوّل الكلمة . فتقول العامة في سوريا ولبنان « كْبير » « صْغير » وفي جهات كسروان « صْحيح » . وأحيانًا يسكنون الحرف المتحرّك بحركة الاختلاس في وسط الكلمة وقد ينقلون حركتهُ الى الحرف الذي قبله : « حُرمْتك » « رِزْقتك » بدلاً من « حُرمَتك » « رِزْقَتك »[٢] . وليس في عربية المصريين شيء من هذه الخلّة ولقد لاحظناها خاصة في لغة شرقي الشام كصَدَد وحَفَر والنَّبْك

ومن ذلك ايضًا إسكان ثاني المتحرِّكين المتلاصقين : قَصْبه (قَصَبَة) شِرْكه (شَرِكه)

(٢) إمالة الفتحة الى الضمّ سواءٌ كانت الفتحة قائمة بنفسها او ملحقة بالالف . وهو الزُّقاف . ومن ذلك قولهم في بشرّي : فُلاَّح (فلاَّح) ولُحَّام (لَحَّام) وخُال (خَال)

(٣) إشباع الحركة في صيغ الامر من الاجوف حيث قواعد اللغة تقضي بقصرها فيقولون في الدارج : « بِيعْ » و « رُوح » كما في السريانية ، وكان حقُّهم ان يقولوا « بِعْ » و « رُحْ »

— ب — التأثير الصوتي في الحروف :

هذا التأثير شائع يتناول معظم الحروف وسنكتفي بالاستشهاد ببعض الامثلة على ذلك

(١) الثاء كحرف لثويّ هو من الاحرف الساميّة الاصلية . ولقد حافظت عليه العربية كما هو . ولكنّ السريانية خفّفتهُ بحيث اصبح « تاءً » . فمتى وجدنا في الدارج كلمة تُلفظ بالتاء يقابلها تاء في السريانية وثاء في العربية الفصيحة جاز لنا الاستنتاج ان تلك الكلمة

(١) ص ٦١ William Wright "Comparative Grammar of Semitic Languages"

(٢) ص ٩٢ Mattsson

وقعت تحت تاثير السريانية — الاَّ اذا قام دليل بيّن على خلاف ذلك · ومن امثلته :

تَوْر في الدارج — تَوْرًا في السريانية — ثَوْرٌ في العربية الفصحى

ومن هذا القبيل حرف « الذال » الذي يلفظهُ الكسروانيون « كالدال » المهملة فيقولون « ديب » بدلاً من ذيب و « لدّه » بدلاً من « لَذَّة » و « أبانا الدي » عوضاً عن « أبانا الذي »[1]

(٢) من الحروف السامية الاصلية الصافرة ما هو في العربية شين وفي السريانية سين · فحيثما نرى في العامية سيناً يقابلها في السريانية سين وفي العربية الفصحى شين يجوز لنا ان نقول بتأثير السريانية

كَسَح في العامية — كسح في السريانية — كَشَح في العربية الفصحى

ومن قبيل ذلك « دُمْس » (صفّ من الحجارة على الحائط) فهي « دُومسا » السريانية وليس في العربية الفصحى ما يقابلها ، و« سَجر » في « الدارج » بدلاً من « شجر » وليس في السريانية ما يقابلها ، و« مُسَّار » (الصخر الكبير) من « مسَّارُا » السريانية وهي تقابل « منشار » العبرانية

وعلى عكس ذلك فمن الاحرف السامية الاصلية حرف صافر هو في العربية الكتابية سين وفي السريانية شين · فاذا عثرنا عَلى لفظة من العامية تلفظ بالشين تقابلها شين سريانية وسين عربية جاز لنا ان نعتبر ذلك من مفاعيل السريانية :

لبشه (لباس لا قيمة له) في الدارج — لِبُاشا بالسريانية اشتقاق لِبِسَ بالعربية

المَشَيحة (للمريض المائت) — مْشحا « مسحَ «

المالِش (يمسح به البنّاء الحائط) من مِلَش « مَلَسَ «

شمَط (سحَبَ) — شمط « سمَطَ «

شحَل (كما في شحّل الدالية) — شحِّل « سَحَلَ[2] «

شَطَح (وَقَعَ) — شطح « سطَحَ «

فَشَخ — يَشخ « بسَخَ وفسَخ

بَشَط (فرش بضاعته على الارض) — پشط « بَسَطَ «

(١) ص ٥٣ Mattsson (٢) راجعها في « تاج العروس »

شَلَح (كما في شَلَح ثيابه) — شلَح = سَلَخ بالعربية

طَمَّش (كما في طَمَّش عينيه) — طَمِّش = طَمس =

شوار (حائط) — شُورُا = سُورٌ =

ومن هذا القبيل «شتل» و «شتله» (الشجرة الصغيرة) و «شرنقه» التي ترجع الى أصل سرياني وليس في الاوضاع العربية ما يقابلها

(٣) الحرف الحلقي في اللغات السامية «الخاء» لا يميَّز في السريانية عن الحاء. فاذا وجدنا في اللهجة اللبنانية خاءً يقابلها في العربية الفصحى حاءً او كافًا — او حاءً يقابلها خاءً — نحكم بان ذلك من مفاعيل السريانية

فمن امثلة النوع الاول:

دَرَّخ (كما في دَرَّخ أغصان الدالية) في الدارج — درَخ في السريانية = دَرَكَ في العربية الفصحى

ومن امثلة النوع الثاني:

تحمَّط (أضمر الشر) في الدارج = أِتحَمَّتْ في السريانية = تَخَمَّطَ (١) في العربية الفصحى

فرْخين بقله = پِرْخِينا = فرْفَخ (٢)

٤ "الكُمَل" السامية حافظت على اصلها السامي في السريانية كما هي اليوم في اللهجة المصرية، ولكنها تخففت الى الجيم في اللغة العربية. فاذا أتينا على كلمات تلفظ في الدارج بالكاف او القاف او الغين — وذلك بداعي الكُمَل السريانية — وكان ما يقابلها في العربية الفصحى جيم نحكم بان ذلك من آثار السريانية:

كعَر في الدارج = كعَر في السريانية = جَأَرَ في العربية الفصحى

مَزكا (الماء يمزج بالخمر) = مزُكا = مزَج

قُزْحَيًا (الدير المعروف) = كُزْاحيًا = الكنز الحي

---

(١) اطلب حَمَّطَ وخمط في «محيط المحيط» (٢) ولا شكّ في انّ هذه ايضًا مستعارة من السريانية. والسريانية نقلتها عن الفارسية «برباحان» S. Fraenkel, "Die Aramaischen Fremdwörter im Arabischen" ص ١٤٣

غدَّف في الدارج = كدَّف " = جدف (1) في العربية الفصحى

ويدخل في هذا الباب كلمات دارجة اخرى من مثل كُودْ (رُزَم) وشرقوطة وشركل (كما في شركل الخيطان) و بقْبق وغفت (كما في غف الطير) وزَغَل (كما في زَغَل المعدن)

(٥) اللغة العربية أبقت من الاحرف السامية كلا الحرفين العين والغين، اما السريانية فاحتفظت بالعين فقط . فالكلمات التي تلفظها العامة بالعين تقابل العين في السريانية والغين في العربية الاصلية هي واقعة تحت تاثير اللغة السريانية :

عمّص (كما في عمّصَ عينيه) في الدارج = عمّص في السريانية = أغمضَ في العربية الفصحى

عَبي (صار الشجر كثيفاً) " = عبي " = غبيَ وأغبى " "

باعُوت (صلاة، طلبة). " = بَاعُوثُا " = تقابل بغْيَة " "

ومن ذلك عَمّدَ ومعمودية ومَعْمدان التي تطرّقت من السريانية الى العربية وليس في العربية الاصلية ما يقابلها

(٦) الحرف السامي — الفاء — احتفظت به العربية، ولكنّ السريانية حوّلتهُ في اللفظ الى پاء او ڤا . وفي بعض الكلمات العربية المأخوذة عن السريانية تحوّل هذا الحرف الى باء . فاذا وجدنا في « الدارج » كلمة فيها باء يقابلها بالسريانية پاء او ڤا وفي الفصحى فاء يحق لنا ان نرى في ذلك اثر السريانية :

بُولاد في « الدارج » = پولاذُا في السريانية = فولاذ (2) في العربية الكتابية

طربون = طرپونُا " = طرَف " "

ويلحق بهذا لفظة « صابوريّة » التي يستعملها العامّة بمعنى السلّة وهي من أِسْبَرِيرُا السريانية وليس في العربية الاصلية ما يقابلها . وهذه اللفظة دخيلة عَلى السريانية من اليونانية (3)

---

(1) ص ٥٠-٥١ William Wright, "Comparative Grammar of Semitic Languages"

(2) وهي دخيلة من الفارسية (3) القس طوبيا العنيسي : « اصول الالفاظ السامية كالعربية والسريانية التي دخلت في اللغات الايتالية والاسبانية الخ » ص ٣٣ .

٤ً المفردات المستعارة

عَلَى ان هنالكّ عدا عما ذكرنا طوائف من الكلم تطرّقت من السريانية الى العربية ويمكننا ان نتعرّفها ونردّها الي اصلها بوسائل لغوية فيلولوجية وبغير الاقيسة التي ذكرناها أعلاه . واليك البعض منها :

قَرْدَح (كما في قَرْدَح النار) = قرْدَح بالسريانية (قابلْ قَدَح في العربية الفصيحة) .

إضحاح (فصل) = صحُحا بالسريانية

بَحَّر (كما في بحَّر القماش) = بحر 〃

نَعَص (كما في نعصَ الكلب) = نعص 〃

زُوم (كما في زوم الثمرة) = زُوما 〃

صَلاحيه (صحن عميق) = صْلُوحيتُا 〃

جَهْجَه (كما في جهجه الضوء) = كَهْكَه 〃

زَلَّف (حَسَّنَ جَمَّلَ) = زَلِّف 〃

زُبون = زُبونُا (١) 〃

كَدَن = كدَن 〃

كَرَز (كما في كَرَزَ بالانجيل) = أَكْرَز 〃

دَقَر (لمسَ) = دقَر 〃

عقس = عقِص 〃

فقّيع (كما في فقّيع التين) = بعوعُا 〃

قسيس = بَشيشُا 〃

تُوك (ضرَرَ . خلل) = تُوكُا 〃

---

(١) ص ١٨٩ Fraenkel

نافور (التقدمة والقربان) = نفورُا[١]

فَرَط (كما في فرط الزيتونة) = فرَط

بُرشان = بُرشُانا

نَطَّى (كما في نَطّى الحائط) = نطُا

عدّان (كما في عدّان سقي) = عَدُنُا

ومن الالفاظ الكلدانية التي تطرّقت الى العربية بواسطة السريانية اسماء بعض الاشهر ومنها شباط ، آذار ، ايار ، حزيران ، ايلول

ولقد عثرنا على طائفة من الالفاظ الدارجة في شمالي لبنان والتي لا يفهمها ابناء الساحل وهي من اصل سرياني وهذه امثلة منها « بِسرا » (بمعنى الحصرم . الحامض) و « بيرُوحو » (الإجاص) و « شوَتقه » (القطعة من القربان المصلى عليه)

ومن دقق في الكلمات المستعارة من السريانية يجدها بالاكثر تمثل الحياة البيتية والزراعية والرعائية ، وبعضها مما له علاقة بالحياة العقلية والدينية ولقد جمع فغالي في كتابه ٢٣٣ لفظة منها ١٧٥ من النوع الاول و٥٧ من النوع الثاني[٢] وفي قائمة حبيقة[٣] لا اقل من ٥٠٠ لفظة دارجة اليوم على السنة اهل لبنان والشام ترجع الى أصل آرامي سرياني . ومنه يتبين عظم تأثير السريانية في لغة البلاد

وما قاله فغالي في خاتمة كتابه بشأن لهجة كفرعبيدا[٤] من « أنّ لا مبالغة في القول ان لهجة تلك القرية هي لهجة عربية قائمة على أس سرياني » يصح على كثير من قرى لبنان

---

(١) وهي من اصل يوناني . راجع العنيسي ص٣٢ و Fraenkel ص ٢٧٨ . ومن الكلمات التي انسابت الى العربية عن طريق السريانية « ناموس » و « قنديل » و « طغمة » و « مطران » .

(٢) ص ٩٤ Feghali, "Emprunts Syriaques"

(٣) القس يوسف حبيقه : " الدواثر في بقايا اللغة السريانية في اللغة العربية العامية "

(٤) ص ٢٩٩ Michel Feghali, "Le Parler de Kfar'abida," Paris, 1919

اسماء الضياع :

ولقد جمع حبيقة نحواً من مئة اسم من اسماء قرى لبنان وضياعها ترجع الى أصل سرياني وهاك بعضها :

عَيْناب	معناها عين ابي	رمخالا	معناها الرمل العالي
عَرمون	= التل الصغير	رَشميّا	= رأس المياه
بيت مري	= دار سادتي	بعبْدا	= بيت العبد
كفرشيما	= حقل الفضة	كفر فاقود	= حقل الآمر
بتغرين	= سوق التجار	ميروبا	= المياه الغزيرة
قرنايل	= قرن الايل	جعيتا	= الصارخة
درعون	= الذراع الصغيرة	اهدن	= الجنة
مجدليّا	= البرج	زغرتا	= الصغيرة
بتدين	= محل القضاء	بطرّام	= بيت العالي

الى هنا انتهت بنا ابحاثنا بشأن اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان ، وبيان نسبتها وعلاقتها بعضها ببعض . وفيها دليل ناصع على غنى الميراث اللغوي الذي اتصل بنا من آبائنا واجدادنا ، ومنه تتجلى العقلية السورية باجلى وضوح ، اذ ليست اللغة سوى مظهر من مظاهر العقلية القومية الاجتماعية . فعسى ان يكون في ما كتبناهُ حاثٌ لغيرنا على متابعة البحث والتنقيب . ولا يرجى ذلك الا ممن يعتبرون اللغة واسطة لغاية ، لا غاية بنفسها وشيئاً حياً نامياً لا راكداً جامداً ، وينظرون الى العربية بصفتها جزءاً من كل ، لا كلاًّ قائماً بنفسه ولهجة من اللهجات السامية